خالد محمد خالد

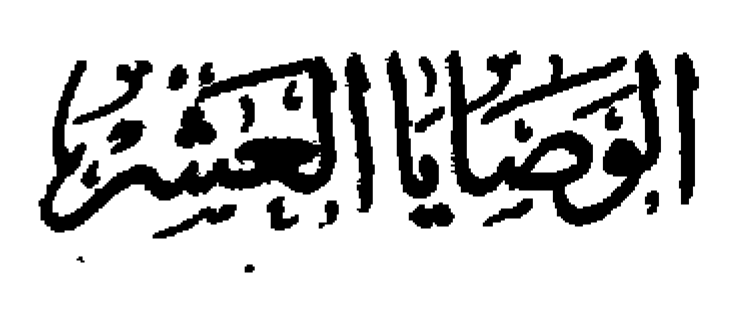


الوصايا العشر

لمن يريد أن يحيا



دار ثابت


الوصايا العشر

خالد محمد خالد

الوصايا العشر

"لمن يريد أن يحيا"



الطبعه الخامسه

٦ جمادى الآخر ١٤٠٦ هـ

١٥ فبراير ١٩٨٦ م .

الناشر: دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد فريد القاهرة ـ ت : ١٩٥٧٤

الإهداء

إلى الشّباب أوّلاً ..

وإلينا جميعاً ..

أُقدّم هذا الكتاب

مقدمة

أخشى أن تُشعرَكم كلمة « الوصايا » بأن من ورائها « واعظا » يُملي عليكم مواعظه . أو يخاطبكم من فوق مِنصَّة الأستاذية . . ! !

من أجل هذا ، يطيب لي أن أبدأ حديثي معكم قائلا :

– أيها الأصدقاء . . لستُ واعظاً ، ولا معلماً . إنما أنا إنسان – مُجرّد إنسان – يحب الناس كثيراً ويرجو لهم الخير جميعًا .

وهو لهذا ، إذا رأى هُدًى أو عرف خيرا ، سارع فدعا الناس إليه ، وبادَر ، فحضَّهم عليه . . حتى ذلك الخير الذي قد يعجز هو عن إدراكه – يجد غبطة نفسه جميعا في أن يدلَّ عليه كل قادر ، وينادي إليه كل مُثابر . .

* * *

ولو أطعتُ بعضَ خواطري ، لاحتفظتُ بهذه « الوصايا » لنفسي اقيسُ بها تقدمها ؛ وأستحِثُّ بها تخلُّفها . وأحملها على السير وفقها ما استطاعت لهذا سبيلا . .

لكنَّ طبيعة « الكاتب » غلبتني . وأيضا طبيعة « الإنسان » الذي يرى مصيره ، ومصير الناس كلهم شيئا واحدا . . ومن ثَمَّ فواجبه ألا يرى لنفسه وحدها ، وألا يفكرَ لنفسه وحدها ، وألا يكتمَ كلمة يراها نافعة ، أو رأيا يحسبه صوابا . .

ورُبَّ مبلَّغ . يكون أوعَى من سامع . .

ورُبَّ قارئ . يكون أهدَى من كاتب . .

* * *

ولئن جاءت هذه الوصايا « عشرا » في تَعدادِها . فإنها « واحدة » في موضوعها . . ! ! !

ففيها جميعا تسري وحدة الغرض . . وبينها جميعا يؤلف تتابُع الغاية . .

وإنها لتبدأ، وتنتهي في خدمة محاولة واحدة – هي انتصارنا على ضعفنا . وتمكيننا من الشد على « دَفَّةِ » الحياة بأيدينا . . .

* * *

ولم أُرد لهذه الوصايا أن تكون « مدينةً فاضلة » أسوق الناس إليها . .

فإن ولاءنا للحرية . ينأى بنا عن أن نُخضع « الروح

الإنساني » لأي تخطيط . .

وحسب هذه الوصايا إذن ، أن تكون للقارئ دليلا يستعين به على بناء « مدينته الفاضلة » بنفسه ، ولنفسه . كما يريد هو ، وكما يختار . .

* * *

وقديما ، سمع أحد الحكماء رجلا يقول في مرارة النادم : « يا ليتني لَقِيْتُ من يقول لي » . . .

فأجابه الحكيم قائلا : – « يا ليتك عملت بما كان معك » . . ! ! وهذا حق . . فمع كل منا هداه .

ومزية الخير قدرته على أن يجعل نفسه واضحًا ومُصدَّقًا ، بحيث لا يحتاج إلى براهين تثبت وجوده أو تؤكد قيمته ، أو تدل عليه . . ! !

وهذا بالطبع ، لا يضائل من قيمة المعرفة . . إنما يرفع إلى مستواها ، قيمة العمل والمثابرة . .

فلتكن هذه الوصايا تذكيرا ، أكثر منها تبصيرا . .
ولتكن حافزًا ، أكثر منها شرحًا وتفسيرًا . .

* * *

وأنت . . . وأنا . . . قد تواتينا القدرة على الأخذ بهذه الوصايا جميعا . وقد نقدر على بعضها ، ونعجز عن بعض . . .

ومهما يكن الأمر ، فلا ينبغي أن نيأس ، أو نتخذ من العجز مَرفأ يرسو عليه زورق حياتنا . . .

بل علينا أن نحاول دوما ؛ ونحقق منها ومن الخير ما نستطيع . . .

وسنجد كمالَنا في أولئك الذين يستطيعون في أن يحققوها جميعا ، ويُضيفوا إليها جديدا . . . كما سنجده في هذا القدر المشترك من محاولاتنا معا ، ومثابرتنا دائما . . .

* * *

والآن . نمضي سويًا ، نحن الذين نلتقي حول هذه الكلمات والوصايا . . .

ولْيحاوِل كل منا أن يَسبق . . . فهذا هو السباق الشريف حقًا . . . النبيل حقًا . . . العادل حقًا . . . ! !

وعلى الذين يَصِلُون أولا ؛ ويبلغون الغاية مُبَكِّرين . أن يُلَوِّحُوا لنا مِن هناك بأيديهم . لِنفرحَ بإخوة لنا سبقونا . . . وليشد عزمَنا الأملُ في أننا بهم لاحِقُون . . . ! !

خالد محمد خالد

الوَصِيَّة الأولَى

أهَلّت عُصُورُ الحُبّ
فوَدِّع الكَرَاهِيَة ..

منذ متى ، والبشرية ترتعد تحت وطأة صَقيع الكراهية ، وزَمْهرِير البغضاء . . . ؟ ؟

منذ عهد بعيد مُمعنٍ في البعد . . منذ ساق أحدُ ابني آدم أخاه إلى المجزر لأن الله رفض قربانه ، وتقبل قربان أخيه ، ومنذ أحسَّ ذلك القاتل ، الوحشةَ الضارية التي خلَّفها له غياب أخيه ، وراح يقلب كفيه الآثمتين ويجترّ حسراتٍ قلبه الخواء الذي فقد الإلْفَ ، ففقَد أشهَى مباهج الحياة . . ! ! !

منذ ذلك الحين البعيد ، والإنسان يصطلي بالكراهية ، ويبحث عن الحب ؛ ليبثَّ في نفسه السكينة ، وفي حياته الأمن .

والبحث عن « الحب » بحث عن « القانون » الذي ينظم سير الحياة ويضمن بقاءها . .

وعَبر الزمان المديد ، كان الرسل والهداة ، والمصلحون ينطلقون من ضمير البشرية ليرتادوا المجهول ، وليبحثوا لها عن قانون حياتها ، وتضرَّجت الأرضِ بدماء الكثيرين منهم .

اغتالَتْهم الكراهية التي شحذت كل قواها ؛ لتفتك بهم قبل أن يفتكوا بها . .

وكان كلما ارتفع للحب راية ، خفقت للبغض رايات . . . وتحرك ميراث الغابة في جَيشانٍ صاخب ، أحقابا تِلْوَ أحقاب ، زاعمًا للناس أن الحب ضعف إنساني ، وزاعمًا لهم كذلك أن البقاء للأشد ساعدًا ، الأحدِّ نابا ، الأكثر استعارًا بنيران الحقد ، والأنانية ، والاستعلاء . ! ! وتعثرت البشرية وخاضت في مستنقعات الكراهية التي كادت تبتلعها . .

وما أكثر العصور التي عجزت البشرية فيها عن إحصاء ضحاياها ، إذْ كان الضحايا يفوقون كل قدرة على الاحصاء . . ! !

وما أكثر المناسبات التي جعلتها البغضاء « مواسم حَصاد » تحصد فيها الناس ، وكل ما يصطنع الناس لأنفسهم من علاقات التفاهم والإخاء . . ! !

* * *

بيد أنَّ الإنسانية تحمل في طواياها إمكانات صعودها . . تلك الإمكانات التي طالما قاومت البغضاء ورواسِبَ الغاب ، وطالما خاضت ضد الكراهية معارك كُتب لها من الفوز ، بقدر ما بُذل فيها من الجهد . . كان الحب الذي فطرَ الله الإنسانية عليه ،

يعمل في أَناةٍ ومثابرة . . وكان يتخذ من كل شيءٍ سبباً يَدْعمه ، ويزكّيه . . .

فحين يرتبط الإنسان بالأرض في قديم الزمان ، يتخذ الحُب من ذلك سبيلا لينمي نفسه داخل ضمير الإنسان وروحه .

وحين يرتبط بالأسرة ، يبرز الحب كقانون للعلاقة بين الرجل وزوجته ، وبين الزوجين وبَنيهما . .

وينشر الحب وُجودَه ، ويُفسح رِحابه . كاسحًا أمامه البغضاء التي كانت تتطوح تحت ضرباته في مثل جنون العواصف وعَرْبدتها . .

وبعد محاولات وجهود ، اكتشف الإنسان أن « المحبة » هي القانون الحقيقي لوجوده ، بل للوجود كله . . ! !

فالجاذبية ، عماد الكون – السماوات ، والأرضون . . . الشموس ، والكواكب ، والنجوم ، والأفلاك جميعًا . . كلها شادَ الله بناءها ، وشدَّ أزرها بالتآلف والجاذبية . ؛ حتى الأضداد التي تتباين خصائصها . . تُؤلّف ذات بينها جاذبية خفية ، تجعلها تعمل معًا ، وكأنها شيءٌ واحد ، لا أضداد مختلفة . . ! !

تبيّن الإنسان أن الحب قوام طبيعته ، وجوهر طِينته . وأنه

خُلق ليُحب ، ويُحَبَّ . . لِيألَف ، ويُؤْلَف . .

تبين له أن « ميراث الغابة » الذي يحضه على الكراهية ، ليس النارَ التي ستحرق مصيره . . بل النار التي ستنضج مواهبه : وتصهر سبيكة الحب ، وتُنقِّي جوهره . .

وهكذا ، رفع مراسِيَه ، وأنزل سفنه في البحار الدافئة . . ومضى يُنمِّي ثراءه الروحي عن طريق اصطناع العلاقات الطيبة التي تُدْنيه من المحبة ، وتُباعِد بينه وبين ميراث الغابة . .

والأرض التي روّتها البغضاء بدماء ضحاياها ، زرَعَها الإنسان وُرودًا ، وأزاهير . . ! !

والأكداس الهائلة ، والجبال العالية من جثث الشهداء ، رفعت الإنسان عن الوحْل ، وأبعدته من المستنقع . .

وكل تجربة مريرة خاضتها البشرية واكتَوَتْ فيها بنار الكراهية ، تحوّلت إلى خبرة غنية ، وإلى سطر مُضيءٌ ، في وثيقة خالدة تعلن سيادة الحب ، واقتراب مَلَكُوتِه . . ! !

وعرفت البشرية الحق وفتحت بصرها عليه ، حين عرفت أن الحب يعني بالنسبة لها ، ما تعنيه الحياة ذاتها . وحين أدركت أنه لا الدين ، ولا الوطن ، ولا اللون ، ولا الدّم ، ولا أي شيءٌ

في الدنيا من حقه أن يدفع بالمحبة إلى الوراء . . ! !

ووقف واحد من الافذاذ – هو محيي الدين بن العربي – يعبر عن هذه الحقيقة ، فيقول :

لقد كنت قبل اليوم أُنكِر صاحبي   إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صورة   فمرعًى لغزلان ، ودِيرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائف   وألواحُ توراةٍ ومصحف قرآن
أدينُ بدِين الحبّ أنّى توجَّهتْ   ركائبه . . فالحب دِيني وإيماني

* * *

منذ عهد بعيد وملكوت الحب يقترب . . ولكنه في عصرنا هذا يسرع في اقترابه .

ونحن – أبناءَ هذا العصر السعيد – سنشهد ليل الكراهية يقترب من فَجره – أقول : سنشهد . . ؟ لا ، بل نحن نشهد فعلا . ولا تحسبنّ هذا إغراقًا في التفاؤل : بل هو إدراك لحقيقة تسطع سطوع الشمس . .

لا تدَعْ فِتن السياسة الدولية تخدعك عن رؤية هذه الحقيقة . . فكل ما تراه من اضطراب وقلق – إنما هو أشبه الأشياء ببقايا

طعام حامض ، تُلقيه أمعاء سليمة وتلفظه مَعِدَةٌ قوية . . ! !

إن الحياة الإنسانية تتقدم ولا تتأخر . . تزدهر ، ولا تذوي . .
وحين نبلو أمرها . نجد أن جوهر ازدهارها – هو الحب . .
تأمل تلك الظواهر العابرة في حياتك ، وفي حياة الناس .
تجد الحب جوهر كل ازدهار . .

إذا ذهبتَ للقاء عروس ترجوها ، ارتديت أبهى ثيابك . .
إذا زارك صديق تحبه ، تحول بيتك إلى عُرس ومهرجان . .
إذا أحببت عملك ، تفانيت في أدائه وإتقانه . .
إذا أحببت زوجتك ، تمنيت أن تنجب منها بنين وحَفَدَة . .
إذا أحببتَ قانونًا ، احترمتَه . .
إذا أحببت أستاذًا ، أحببت المادة التي يدرسها . .
إذا أحببت وطنك ، لم تفكر في خيانته . .
إذا أحببت الحياة ، لم تفكر في الانسحاب منها . .

وكلنا تمر بنا تلك اللحظات التي تتفجَّر فيها أنفسنا محبة وشوقا ، وصداقة ووُدًّا ، فإذا بأفئدتنا تهفو نحو كل خير ، وتفيض توقيرًا واحترامًا للحياة ، وتبدو الدنيا بهيجة ، والناس طيبين ، والمستقبل مغردًا . . . ! !

لحظاتُ الحبور هذه ، لا تكاد تواتينا صافية مُشِعَّة إلا

حين تحيا نفوسنا في حالة حب ظافر . .

ونحن نظلم الحياة حين نحسبها فقيرة أو بخيلة بهذا الحبور ، فالحق أنها تعطي منه بغير حساب لمن يهيئ نفسه لِتقبُّله ، وذلك بأن يطهر قلبه من البغض ، ويحيا في وفاق مع نفسه ومع الناس . .

إن الإحساس بالجمال ، وبالمحبة ، وبالحياة ، قريب من كل فؤاد ذكي ، وكل قلب سليم . .

والقلوب الذكية السليمة ، هي التي تدرك روح الخير وتحياه . وروح الخير في عصرنا هذا يَحظى بأوفى قدر من الوضوح وأوفى قدر من الاتحاد مع روح العصر ذاته . .

فمن مزايا عصرنا هذا أنه عَرَف – وبوسائله هو – كل القيم الصحيحة ، واللازمة لاستمرار الازدهار البشري .

وعلى رأس هذه القيم جميعا ، وَضَع الحب ، وأعْلَى رايتَهُ . . الحب الخالص القوي النامي ، الذي يقول للكراهية : وداعًا . . ! !

وكل مظاهر الكراهية المتبدِّية في عصرنا هذا ، تمثل – لا غير – آلام المَخاض الذي يُبشر بالوليد ويُرهِصُ به . .

وهذا الوليد ، هو عالَم لا بغض فيه أبدًا . ولا حقد فيه أبدًا . .

وأنت – يا من تتلو هذه السطور الآن – واحد من الجيل الذي اصطنعته الأقدار السعيدة ليقوم باستقبال ذلك الوليد المُهِلّ ؛ حيث الحب الوثيق ، والإخاء العميم . فَوَدِّع الكراهية ، وخذ مكانك في صفوف المحبين الودعاء . .

أنت واحد من الجيل الذي وُضعت على كاهله تَبعات الميلاد .

ميلاد الإنسانية التي طال شوق الله إليها . . والتي من أجلها أرسل الرسل المباركين . وأيد جهاد الرواد والمصلحين . .

الإنسانية التي تختفي الكراهية من حياتها ، والتي تقود المحبة العظمى سلوكها وتهدي خطاها . ! !

الإنسانية التي يقول كل فرد فيها لأخيه : يا أنا . . . ! ! فاعمل من أجل أن يقترب هذا الميلاد .

ومهما يكن عملك في هذا السبيل ، فلن يكون عملا ضائعًا . لأنك لست وحدك . . بل هناك ملايين من الناس مثلك مبثوثون في الأرض . يحملون الشّعَل المضيئة . وتَموج أفئدتهم بمشاعر الود الخالص . . يتكلمون لُغَة الحب ويسيرون تحت رايته ...

وإنهم على بُعد ما بينهم من مسافات ، لَيعيشون معًا وإن

لم يتم بين أشخاصهم لقاء . . وإن مشيئتهم الواحدة ، لَتجعل من شَتاتِهم أمة واحدة . وهؤلاء – قبل سواهم – هم لَبِناتُ العالم الواحد الذي ننتظره . . .

لستَ وحدك إذن ، فانهض وخذ مكانك بين رفاقك العظام . . ! !

لا تُسِئ الظن بعصرك ، ولا تحسب – إذا كنت محبًا – أنك « عصفور بين غِربان » أو أنك « صالح في ثمود » . . ! ! !

فالحق أن « غربان » البشر تنقرض . . وسيطوي الغد القريب كل بقاياها التائهة ، وستَخلُصُ الحديقة للعصافير المغردة . . ! !

إن الحياة تفتح ذراعيها الحانيتين لتضم إلى صدرها الودود ، كل محب ودود . .

وإنها لتنادي الطيبين الودَعَاء : – إليَّ يا بُذُور الغد المجيد . . إليَّ يا طلائع البشرية المقبلة . . ! ! !

وإنها لَتدَّخر لهم كل طيباتها ، وكل مقاعد الشرف لديها .

لم تعد الحياة الإنسانية تأبه إلا للبطولات التي تنطلق من الخير وتعمل وَفق أغراضه .

ولقد أنزلت عن عرش التاريخ جميع الذين نسجوا مجدهم من التسلط والاستعلاء وبث الكراهية . . ورفعت مكانهم ذوي القلوب الكبيرة الذين بسطوا أيديهم بالخير ، وبشَّروا بين الناس بالحب . .

لقد أنزلت « جنكيزخان » ، ورفعت « بوذا » . . .

طوت أعلام « بونابارت » ونشرت أعلام « باستير » . . .

دمّرت صولجان « هتلر » وقدَّست مغزل « غاندي » . . .

لم يعد التاريخ يقف عند ذوي البأس والسطوة . . بل مع ذوي المروءة والحق . ! ! !

لم تعد تبهره بطولات الفتح العسكري ولا السياسي . . بل تبهره بطولات الفتح الإنساني الذي يجمع الشَّتات ، ويقاوم التمزُّق والكره . . .

لم يعد ينثر الورود على الذين يضعون أنفسهم فوق الناس . . بل على الذين يبذلون جهودهم لخدمة الناس . . !

فإذا بذلْتَ من قلبك للآخرين حبا ، وصفاء ؛ فلن يكون قلبك موضع السخرية ، ولا الجحود .

فانهضْ ، وخذ مكانك بين رفاقك العظام . . .

* * *

إنْ معايير الحياة الإنسانية قد استقامت ، ونجتْ من قُوَى الزيف والمناورة . . وإن المحبين الطيبين ، لن يُسلَموا بعد اليوم للنكران ، ولا للضَّياع .

من يزرع البغضاء، يحصد القطيعة . . .

ومن يزرع المحبة ، يَجني الحياة . . .

لقد استقام الميزان تمامًا ، ولن يَعْتَوِرَ كفتيه اضطراب . .

إذا أحببت الناس صادقًا ، فلن يكرهوك أبدًا . .

صحيح أنهم قد يفعلون ذلك بعض الوقت ، لكنهم لن يلبثوا إلا قليلا ثم يعودون إليك تسبقهم قلوبهم . . .

ذلك أن الناس الذين يكرهون إنسانًا يحبهم ، إنما يدفعهم لهذا إحساسهم بأنه متميز عليهم . فهو يحب ، وهم يبغضون . . وهو يسمو وهم يهبطون . . ومن ثم يتخذون نفس الموقف الذي اتخذته بعض الأمم من أنبيائها حين قالوا : « أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » . . ! ! !

لكن التفوق الأخلاقي يحمي نفسه ويَفرض كلمته . . من

أجل هذا سرعان ما يكتشف المبغضون خَطَل موقفهم ، فيعودون مهرولين إلى من أحبهم ونفروا منه . . ويجدون فيه واحةً يلتمسون عندها السلام والراحة ، وتضع عنهم أوزَارهم التي أنقضَتْ منهم الظهور . . .

ذلك أن أولىَ مزايا الحب . قدرتُه على منح الآخرين الثقة به والطمأنينة إليه . .

وهكذا ، لا يذهب حبك للناس سُدًى . .

فانهض ، وخذ مكانك بين رفاقك العظام . . .

* * *

ولكنْ ، كيف تبدأ ؛ لكي تكون مُحِبًا . . ؟؟؟

طالما قالت لك الوصايا الأخلاقية : أحبِبْ جارك . . أحبب إخوانك . . أحبب والديك . . أحبب عملك . .

وكل هذا حق . .

بيد أنني أريد أن أسبق كل هذه الوصايا بوصية أخرى ، هي : « أحبب نفسك » . . ! !

أجل . . . أحبب نفسك . . أحببها دوما . وأحببها كثيرًا . ،

ـ م يجمعك بها حب عظيم ، فلن تكون أبدًا محبًا ، ولن تكون قط محبوبًا . ! !

قد يبدو هذا الحديث غريبًا ، إذْ طالما ظننَّا أن العكس هو الصحيح . . حتى لقد وضع أدبنا الشعبي ، وأمثالنا السائرة حكمة تقول « من أحب نفسه كرهه رفاقه » . .

لكن الحق ، أن من أحب نفسه أحب رفاقه وأحبه رِفاقه ؛ . . لأن الذي يعطي ، هو الذي يملك . . والعاجز عن حب نفسه ، هو عن حب غيره أشد عجزًا . . ! !

وصدق أفلاطون حين قال : « إن أشق أنواع الصدقات كافة ، صداقة المرء لنفسه » . . !

لقد مَرَدْنا على اعتبار حب النفس ، والأنانية وجهين لشيء واحد ، وهذا ظلم مبين . .

فالحب . . ما الحب . . ؟ ؟

إنه نشاط بهيج تُعبِّر به الروح عن نفسها . .
إنه رغباتنا في حالة تَشوُّفٍ وحبور . .
فكيف يتحقق خارجًا عنها . . ؟
كيف نمنحه غيرنا . ونمنعه أنفسنا . . ؟ !

إننا نحب الأشياء التي نَرغبها ، ونجد في التعلق بها مُعاناةً ممتعة ، وفي الفوز بها سعادة فائقة . .

فنحن إذن . نحب بأنفسنا . . ونحب لأنفسنا . .

فإذا قيل لنا ، أحبوا أنفسكم . كان هذا ، الاستهلالَ الرشيدَ ، لكل حب رشيد .

وحبك نفسك . مختلف عن الأنانية اختلافًا كبيرًا . .

فالأنانية ليست حبًا أبدًا . إنما هي تعصّب ، وانطواء ، وغرور . . بينما الحب يتضمن دائمًا التسامح ، والايثار ، والفهم . .

أحبب نفسك . لتستطيع أن تحب الآخرين .

أحبب نفسك . ولا تمقتها : فالذين يمقتون أنفسهم يتحولون إلى طلقات مقذوفة في حرب أهلية . ! !

وما أظنك سائلي . وكيف أحب نفسي . . ؟

فأنت تحبها فعلا . ولست بدعوتي إياك إلى حبها ، أدعوك إلى إيجاد ماليس موجودًا . . إنما أدعوك إلى تنمية هذا الحب الذي بَرأ الله عليه كل حيّ . . وأدعوك إلى ترشيده ورعايته . كما يرعى الأب طفله النضِر . . وكما يتعهد البستاني الحاذق بَراعِم الحديقة وورودها . . ! ! !

وأول التزاماتك تجاه حبك نفَسك ، أن تعرف قيمتك . .

فأنتِ أيها الصديق – إنسان طيب . .

مهما تكن عثراتك وأخطاؤك ، فأنت إنسان طيب ، ولو لم يكن فيك إلا رغبتك الملحة في أن تكون أفضل مما أنت . لكفاك هذا . .

إن عوامل الشر الكامنة في أنفسنا ، والمنتشرة حولنا ، تطارد نوازع الخير ، وتتحداها في إصرار . ومع هذا ، ففي أعماقنا دائمًا نزوع إلى الخير ، وحنين إلى الكمال ، ومحاولات تكبو مرة ، وتنهض مرات . .

فلا تكن بَاخِعًا نفسك على عَثَراتها . .

ناقش نفسك في أخطائها . . لكن لا تمتهنْها . .

الْوِ زِمامَها عن السوء . . لكن لا تضطهدها . .

إن أكثر الذين يُضْمِرون للناس العداوة والحقد ، إنما يصدرون عن خراب داخلي في أنفسهم التي كرهوها ، واضطهدوها . . !

فإذا أردت أن يجد الناس منك السلام والصداقة ، فابدأ بأن تمنح نفسك سلامًا وصداقة . فإن العالم لن يتلقى منك إلا

ما تعكسه عليه حياتك الباطنة ، وسلوكك النفسي .

أما إذا سلبت نفسك راحتها ، فقد يُرشحك ذلك لمنصب كبير بين الأشقياء الذين يسلبون الدنيا راحتها . . ! !

إن نفسك جديرة بحبك وباحترامك . . لأنها ليست ذرة تائهة في خَواء . . بل هي حلقة ثمينة في سلسلة الكِيان الإنساني . . هي عضلة عاملة من عضلات القلب البشري . . ! !

وإذا وقفت أمام المرآة لتصلح هندامك . فاذكر أنك تبصر في المرآة كائنًا سحريًا تمثل فيه كل خصائص النوع الإنسان بجميع بؤسه وجميع عظمته . . ! !

إن الحب العظيم الذي كان يعمر قلب « محمد » ، و« المسيح » . . وقلب « بوذا » وغاندي ، موجود فيك ومعك . . وإنك لتملك هذا الرصيد . بيد أنك تجهل وسائل استثماره . ولا تبذل إرادتك جهدًا كافيًا لبعثه ونشوره .

إن أساتذة الحب ورواده الذين عاشوا ، أو يعيشون فوق ظهر كوكبنا ، لم يفعلوا أكثر من أن تعهدوا زهرته التي غرسها الله بيمينه في قلب كل إنسان .

تعهدوها بالسقي ، وبالرعاية حتى أَعْطَتْ خَبْئَها ، وعِطرها ، وشَذاها .

ولقد بدأوا جميعًا بأن أحبُّوا أنفسهم . .

أجل – لقد أحبوا أنفسهم . . الأنبياء ، والهداة ، والرواد ، وكل عظيم صادق العظمة من بني الإنسان . .

بدأوا بحب أنفسهم . حتى إذا حدّثوا الناس فيما بعد عن الحب ودعوهم إليه ، سارت كلماتهم كالمقادير . . !

والدليل على أن حبهم لأنفسهم كان كبيرا – أنهم نَدَبوها للأعمال الجليلة ، وللجهاد الكبير من أجل خير الانسانية كلها . واختاروا لها أشقّ وأعظم رسالات الحياة . . وجندوها تجنيدًا كاملاً لقضية الحق ، والخير ، والرحمة ، والحب . .

وهذا ، يمنحنا المفهوم الصحيح لحب النفس .

فحبك نَفْسَك . لا يعني الانطواء عليها وتدليلها . .

لا يعني تركها ترعى مع الهمَل . وتختار من الواجبات والتبعات نفاياتِها الهزيلة . .

لا . . ليس ذلك كذلك أبدًا . .

وإنما حب النفس إذا كان صادقًا ورشيدًا . يدعو صاحبه إلى إيثار الواجبات الثقيلة ، والتبعات الرفيعة ، والتحليق عاليًا في آفاق العظمة .

فليس يحب نفسه حبًا سويًا ، من يجعل غاية سعيه ، أن يبحث عن حِنطةٍ لِرَحَاه . . ! ! !

إنما هو من يزداد بوجوده رصيد الحياة ، ومن يترك دنيا الناس يوم يتركها . وقد مهرها بتوقيعه . وضمخ هواءها بشذاه . . !

فحبك نفسك إذن يعني : —

* أن تعيش معها في وفاق تام . .

* وأن تجعلها دائمًا موضع حفاوتك وتقديرك . .

* وأن تَندُبَهَا لأكثر مهام الحياة جلالا وسموا . .

فإذا أحببت نفسك . ألفيتها تنطلق وراء الحب في كل مكان . .

وبغير عناء ، تذوب الثلوج ، وتماع الحدود التي تفصلك عن الناس . وتعثُر حياتك على شعارها الذي سيكونْ « جميع الناس إخوتي » . . ! !

وأنت لا بد تعلم أن الاحتفاظ بروح السلام والود بينك وبين الناس مهمة صعبة . . لكن حبك الذي أنضجْتَه داخل نفسك ، قادر علي أن يجعل الصعب سهلا ، وولاؤك الوثيق للحب ، كضرورة إنسانية ، وقيمة عليا — سيجعلك في كل نزاع ، خيرَ

ابني آدم ، وأزكاهما نفساً .

وسوف تلتقي في الحياة بناس تعبق منهم كل عطور التفوق الأخلاقي . . وهؤلاء لن تتكلف حبَّهم ، لأن سموهم ينادي إليهم كل نظير . وهم لا يحملوننا على حبهم فحسب ، بل وعلى حب البشرية التي أنجبتهم . . !

وستلتقي بآخرين ، تعرِفُ منهم وتُنكر . . لا يشجعون على حبهم بل ولا على الاقتراب منهم . فيهم الكثير من أخلاق المستنقَع . . ! !

وهؤلاء فرصة لك فاغتنمها . . إنهم هم الذين سيكشفون عن جوهرك ، ويفتحون عينيك على المستوى الذي بلغته نفسك في حبها وتفوقها . .

إنك لا تأتي أمرًا غير عادي ، حين تحب من يستحق أن تعطيه حبك . . بيد أن العظمة الوافية هي أن تمنح نفس الحب للذين يعجزون عن حبك . . بل للذين يكافئونك على الحب بالعداوة . . ! !

* * *

وإذا كان الحب فطرة ، فالتعبير عنه فن عظيم . .

وعلاقاتك بالناس ، لا يكفي أن تقوم على المجاملة . بل

ينبغي أن تضرب جذورها في الأعماق . . وأن تقوم على الحب الكامل الوثيق . . ولكي تدرك هذا ، عليك أن تبذل جهودا دائبة ليزداد ثراؤك الروحي من : —

* التسامح . .
* التفوق . .
* التفاؤل . .

فهذه الثلاث تشكل أعصاب المحبة ، وشَرايينها .

* * *

* * فلا بد من التسامح لكي تكون مُحِبًّا . . ذلك أن الناس صنوف شتى .

ولكل منهم شِرْبُه ، وطبيعته ، ومُنَاخُه . . ومهما يذهب أحدنا صاعدًا ، فإن له زَلاَّتٍ ، وخطايا . . ومهما يذهب أحدنا هابِطًا ، فإن له حسنات ، ومزايا . . ! !

فضع في حسابك دوما أنك تتعامل مع الجزء الأفضل من الناس ولا تكن قَوِيَّ الذاكرة تِجاهَ إساءاتهم ، وكن قويها تلقاء مزاياهم وخيرهم . . ! !

لن تجد أبدًا ، الإنسانَ الذي ما ساء قط . . الإنسان الذي تصفو مَشارِبه . . لكنك واجد دائمًا الإنسان الذي ينطوي على

خير ، ولو ضَئيل . . ! !

فتعرَّف إلى هذا الخير في كل من تَلْقَى ، وتعاملْ مع هذا الخير كثيرًا كان أو قليلا . وحاول أن تُنمِّيه بتسامحك وتساميك وَحدَ بِكَ . .

أجل ، ضع عينك على اللمعة البيضاء في كل فرد تلقاه ، ولا تتبع عورات الناس ، ولا تركز على ضعفهم فإن بك مهما تكن قوةُ نفسك – ضعفًا لا تحب أن يركز الآخرون عليه . . ! !

إن الفرد الكامل . لا وجود له بين صفوف الناس .

ولكن الكمال كامن في قدر مشترك من جهودهم جميعا . . وإذا ساءك من أحدهم أمر ، سيسرك منه أمور ، فوطد عزمك على التسامح والفهم ؛ تظفر بقلوبهم ، وتعاونهم على ما ترجو لهم من ارتقاء . . . وحين تدفع السيئة بالحسنة ، والتجهم بالتهلل ، والأذى بالصفح ، فلن يكون لك على ظهر الأرض خصوم ؛ لأن روحك الطيبة ، ستجذبهم طائعين أو مكرهين . وسيمسُّهم منها شعاع مقدس فإذا هم وُدَعاء مُحبون . . ! ! أهناك بين أرباح الدنيا كلها ومكاسبها جميعًا ، ربح أوفى من هـذا أو مكسب أغنى وأبقى . . ؟ ؟

لقد فعل ذلك « إبراهام لنكولن » مع خصوم له ذوي كيدٍ

مُزعج . .

ولما عوتب في تسامحه معهم وقيل له : لقد كان الإجهاز عليهم عملا تقتضيه العدالة . أجاب قائلا :

— وهل فعلت غير هذا . . ؟ ؟ لقد أجهزت عليهم كأعداء ، حين حولتهم إلى أصدقاء . . ! !

ربما تقول : ومع هذا ، فقد انتهت حياة « لنكولن » برصاصة حاقدة ! !

وأجيبك : نعم ، لقد ذهب « لنكولن » ضحية بُغض أهوج ، وكذلك ذهب « غاندي » ، ومن قبلهما « سقراط » ، وكثيرون من طرازهم الرفيع . . ! !

بيدَ أنَّ ذلك لا يعني أن حياتهم كانت باطلة ، وأن سلوكهم المتسامح الودود كان ساذجًا ، وإنما يعني أن البشرية لا تزال بحاجة إلى المزيد منهم . . المزيد من مبادئهم وسلوكهم . .

أجل . . لَكَأَنَّ قدَرنا الإنساني يَستحِثُّنا ، ويقول لنا : —

انظروا . . إن أساتذة الصفح والحب يسقطون صرعَى الضغينة . . إن أكثر الناس بعدًا عن مظنة القتل غِيلَة ، يذهبون غيلة . . ! ! إن البغضاء يُجن جنونها كلما أبصرت رائدًا جليلا يقود الناس لِتحدّيها ، وكلما أحست اقتراب نهايتها . . فضاعِفوا

جهودكم ، وتقدموا صوب الوحش الكريه . . إنه يترنح ، فأجمعوا أمركم ولا تدَعُوه يُفلِتْ . . ! !

هذا ما ينبغي أن نفسر به مصرع كل محب يذهب شهيد حبه ، وكل متسامح يذهب شهيد تسامحه . .

على أن هؤلاء – في التحليل النهائي لهم – لم يذهبوا ضحايا تسامحهم وحبهم . بقدر ما ذهبوا ضحايا لمكايد السياسة ومؤامراتها الخبيثة . !

أما التسامح والحب اللذان تَواصَوْا بهما ، فقد أكسبَاهُم قلوبَ أفضل الناس حين كانوا بينهم . . وتقديسهم جميعًا يوم رحلوا عنهم . . ! !

* * *

* * لا بد من التفوق ؛ لكي تكون محبًّا . . ذلك أن الحب بذل لا ينتظر العِوَض ، وتتويج لحياة صَفَّتْ جناحَيْها ، وطارت محلقة وراء الخير الأسمى . .

فالمحب ، أبعد الناس عن الحقد ، وأبعدهم من الغضب . .
والإنسان المتفوق لا يحقد . ولا يطول غضبه إذا غضب . .
ذلك أن الحقد عزاء يقدمه الفاشلون إلى أنفسهم العاجزة . .
كل امرئ حقود ، ليس في حقيقته سوى أنقاضِ حَيٍّ ، وبقايا

جُبان . . ! ! ! ولن تجد إنسانًا مطمئنًا إلى نفسه ، يحقد على الآخرين مهما يسبقوه . .

والحقد حماقة كبرى – لأن الحاقد إنما يضاعف مَتاعِبه وشقاءه ، ويُصْلِي روحه المقهورة سعيرًا . . ! !

فلا تجعل الحَاقدين يظفروا بك ، ويضمّوا عضوًا جديدًا إلى عصَابتهم الفانية . ! !

وذلك لا يتطلب منك أن تتجنب الحقد وحسب . .

بل ويقتضيك ألا تقاوم الحقد بحقد مثله . .

مهما تُوجَّهْ إليك سهام الحقد . . تجنب أن تصير حقودا . .

قاومها بثباتك ، وبفضائل نفسك ، وبحيلتك الواسعة الكريمة.

هناك حكمة صادقة تقول : « لا تقاتل التّنين ، حتى لا تصير تنينًا مثله » . ! !

فلا تحقد على الحقود ، حتى لا تصير حقودًا مثله . .

احْمَدِ الله إذ جعلك عاليَ النفس ، كبير القلب . . وإذا ألجأتك أحقاد الآخرين إلى مقاومتها ، فقاومها بأسلوبك أنت . لا بأساليبهم هم . . وتصرّف تصرُّف عظيم لا تحمله أخلاق الصغار على أن يصير صغيرًا . . ! !

ولكي يَسْلَس لك هذا الموقف النبيل دوما . . تعوّد ألا

تغضب ، وألا يلبث غضبك إلا قليلا . .

أنا أعلم أن الغضب في طبيعتنا . ولا بد للناس أن يغضبوا أحيانًا.. ومن العسير ألا نغضب أبدًا.. لكنْ من اليسير ألا نغضب كثيرًا . . ومن اليسير كذلك ألا يكون غضبنا أرْعَن مهتاجا . .

إذا غلبك الغضب ، فاغضب « غضبا مُفَكِّرا » . .

والغضب المفكِّر ، لا ينقذف من أعصاب خائرة ، ولا من ذِمّةٍ جائرة . . بل يكون انفعالا . فيه حمية ، لكنْ له منطق . . فيه انتفاض ، لكن معه كَابِح . . وفيه ذكاء كريم يدور حول الأزمة ويفسرها . . وسرعان ما ينتهي الغضب ويذوب . .

وصف رسول الله عليه السلام الإنسان المتفوق المؤمن بأنه « بَطِيءُ الغضب ، سريع الْفَيْءْ » . .

وإنه لَوصف حاذق ، بقدر ما هو صادق . . ! ! !

فإذا كان لابد من أن نغضب ، فينبغي ألا يجيءُ الغضب حتى نستنفد كل محاولات دفعه . . ثم علينا ألا نسمح له بطول المكث وحَطِّ الرحال .

تَفوَّق على حوافز الغضب ، بفلسفة الصفح . .
وأطفئ صُراخ الاستفزاز ، ببرد الثقة . .

وحاول أن تعرف كثيرًا ، وعندئذٍ ستغفر كثيرًا . . ! !

كان « الفضيل بن عياض » الصوفيّ الكبير إذا اعتدى عليه بالسباب مُعتدٍ ، رفع كفيه مبتهلا وقال :

— « اللهم إن كان كاذبًا فيما رماني به ، فاغفر له . . وإن كان صادقًا ، فاغفر لي » . . ! !

سُلوك رائع من قِدّيس . . ! أليس كذلك . . ؟ ؟

ومع هذا ، فليس القديسون وحدهم هم الذين يتخذون هذا الموقف الحكيم ، بل ويتخذه كل فَطِنٍ أَريب يَضِنّ على الغضب بِذرة من أعصابه وسكينة نفسه . .

كان « دزرائيلي » إذا أثاره أحد وأغضبه ، كتب اسمه في ورقة ، ثم تأملَها جيدًا ، ثم مزّقها ، فينتهي غضبه من فوره . . وبهذه العادة الصالحة استنقذ راحة نفسه من براثن الغضب ولفحات الغيظ . . ! !

وأنت قادر بالمثابرة والتعود أن تتفوق على الغضب ليظل قلبك سليما وَدُودًا . .

لا تجعل غضبك « نابحًا » بل اجعله وديعًا ، وعابرًا . . وكن سريع الفيْ والرضا . .

* * *

* * ولا بد لك من الحماسة والتفاؤل ، لكي تكون مُحِبًّا . . فالحماسة ، والتفاؤل عصَبُ كل حب سديد ، كما أنهما مَثُوبة الحب يهديها إلى ذوِيه . .

إن المحب يرى الحياة ببصيرته الثاقبة ، ويُضفي عليها من صفاء روحه ما ينحِّي عنها الكآبة . . وهو لا يفعل هذا بخيال فنان . بل بِحُنْكَةِ مُجَرَّب وفطرة إنسان ؛ لأن الحب لا يصير منهجًا للنفس وللسلوك إلا بعد أن يجتاز الإنسان ، تجارب كُثْرًا يواجه خلالها من أسرار الحياة ، وبواطن الأمور ما يجعل التشاؤم خُرافة ولغوا .

فتفاءَلْ كثيرًا ، وتفاءل دائمًا إذا أردت أن تحتفظ لحبك بدرجة الحرارة الملائمة واللازمة ، وَرَعْرِعْ روحك دائمًا بالحماسة والتطلع والشوق . .

إن التفاؤل والحب يُسقَيان بماءٍ واحد . . كِلاهُما فَرح ، وتَهلُّل وثقة وطمأنينة . . ! !

والحق أن ليس ثمة في واقع حياتنا وتطورنا ما يغري بالتشاؤم ، ويصد عن التفاؤل . .

ولقد كان المتفائلون في كل العصور على الصواب . . فها نحن أولاء نرى البشرية لا تزداد إلا تقدمًا ، وإلا صعودًا . .

فتفاءل ، وتهلل ، ولا تحصر تفاؤلك داخل حدود . .

إذا قيل لك : إن الأرض ستكُفُّ عن دوارنها حول الشمس فقل : لا بد أنها ستغير قانون حركتها ، ولكنها لن تبيد . . ! !

إذا قيل لك : إن الشمس ستختفي غدًا . . فقل : لا بد أن شمسًا أخرى أكبر منها وأبهى ، ستأخذ مكانها . . ! !

إذا رأيت حربًا عالمية تجعل ما حولك حَصِيدًا . فقل : إن البشرية تتقايأ آخر أقذار أمعائها . . ! !

لا تظن هذا الحديث شعرًا ، وإن بدَا في مثل خيال الشعراء . . فالتفاؤل مهما نسرف فيه ينطوي دائمًا على صدق تاريخي ، ويستمد صدقًا كبيرًا من معالم تطورنا الإنساني . . .

فنحن منذ وجودنا على الأرض نُبصر قُوَى الحياة باقية في مكانها مثابرة على أداء دورها . .

وكل هذه القوى تُجدِّد باستمرار حيويتها ، وتُعوِّض ما يسقط منها عَبْر السفر الطويل ، وتدفع بالحياة الإنسانية إلى غرض لا يبدو أن من سِماتِه التدهور أو الفناء . .

تفاءل دائما في حماسة وثقة . .

تفاءَلْ لنفسك ، ولمن حولك . وللناس جميعا . .

والآن ، وقد رضْتَ نفسك على حب نفسك . . وعلى حب غيرك . فَوسِّع دائرة حبك حتى تسع الناس جميعا .

لا تَخفْ أن يَنفَد حبك أو يَغيض . فالحب يزيد بالإنفاق ويموت بالشح والإمساك . . ! !

تخطَّ بحبك جميع التخوم والحدود . .

ابسط ذراعيك ، وعانق البشر جميعا ولا تَلْوِ زمام قلبك إلا عن قُوَى الشر التي تعوق تقدم الإنسان . وتُهدِّد أمن الحياة . وتُنكِّس ميزان العدالة في الأرض .

وفيما وراء ذلك لا تَدع اختلاف الدين ، ولا اختلاف الجنس ، واللون ، ولا اختلاف المذهب والرأي . يُضائل من حبك المفيض ، أو يصده عن السبيل .

أحِبب البشرية الخيِّرة كلَّها . وقل : « هذه أسرتي » . . .

ولكن اذكر أنك لن تستطيع أن تُجيد حب العالم ، إلا بعد أن تجيد حُب الوطن . . . فحبك الآخرين البعيدين منك . يبدأ تدريبه هنا . مع عشيرتكَ وأهلك . .

وكما قلتُ لك . إنك لن تحب الناس ، حتى تحب نفسك . .

أقول لك – لنفس الأسباب – إنك لن تحب العالم ؛ حتى تحب الوطن . . ! !

وأيضًا ، لن تحب وطنك حبا خالصا – إلا إذا أحببت العالم حبا خالصا . .

ذلك أنه إذا كانت الأرض التي تعيش فوقها ، ويضم ثراها رُفات آبائك ، وتستقبل من بعدك أبناءك وحفدتك . . .

إذا كانت هذه الأرض وطنك ، فالعالم هو وطن هذا الوطن . . ! !

وإذا كان الوطن « أباك . » فالعالم « جَدّك » . . ! !

فإذا كنت « ابن » وطنك . . فأنت « حفيد » عالمك . . ! !

والحب الإنساني الذي يقف عند حدود الوطن ، لا يكون في حقيقته حبا – بل تعصّبا .

والحب الذي يتخطى الوطن إلى العالم ، لا يكون حبا ، بل جحودا ، وإفلاسا . . !

وأنت بحاجة دائمة إلى التركيز بقدرٍ أوفَى على حب الوطن ، لا تعصبا ، ولكنْ رعاية لضرورة الحب ذاتها ؛ لأن متاعب الحياة – عادة – لا تجيء من الناس البعيدين منا بقدر ما تجيء من الذين تجمعنا وإياهم روابط العيش والعشرة الدَّانية ، حيث تولد

العلاقات المتبادلة والمباشرة كثيرًا مما يسر ويَسوء. فما لم نكن مزودين بالفهم، ومفعمين بالحب، فإن الميزان سيضطرب في أيدينا..

لا تسمح لشيءٍ مًّا، أن يكدر صفو حبك وولائك لوطنك.. ولقومك... وخذ القدوة من أصحابها العظماء.

هذا هو «محمد» رسول الله عليه الصلاة والسلام. يضطهده سادة قومه، ويخرجونه من وطنه، فيودعه في أسى المحب، ويستقبل مكة قُبَيْلَ الرحيل قائلا:

«والله إنك لأحَبُّ البلاد إلى نفسي.. ولولا أن قومك أخرجوني منك، ماخرجت أبدًا»..

يا لروعة الولاء. لكأنّه يعتذر إليها، عن رحيله عنها..!!

وهذا، هو «المسيح»، يقوده إلى الموت، الذين جاء ليحررهم من الأغلال، فيستغفر لهم، ويبتهل إلى ربه قائلا:

«اغفر لهم يا أبتاه؛ لأنهم لا يعلمون ما يفعلون»..

أرأيتم جلال الحب...؟؟ شهيدٌ يستغفر لقاتله..!!!

وستجد صفوفًا طويلة من ذوي العظمة الصادقة أعطَوْا أوطانهم كل شيْ، وربما أصابهم من قومهم أذًى وضُرّ، فما

أبغضوا الوطن ولا حقدوا على الأهل ؛ ذلك لأن الضر مهما يشتد ، عَارِضٌ سيزول . . . والأذى الذي يُزْجِيه بُغض الناس ، لا ينبغي أن يحمل وِزرَه الوطن . . ! !

والحب الكبير الذي يُعِدّ نفسه ليسبح في المحيطات الواسعة ، يجب أن يتفوق أولا في سباحة الأنهار . . ! ! !

والقلب الودُود الذي يصافح وُدُّه البشرية بأسرها ، لا بد أن يكون قد استقر ولاؤه لعشيرته الأقربين . .

فليكن حبك صادقًا وعَميمًا ، وليكن ميزانه مستقيماً . .

كن ابن وطنك ، وأخا العالَم . . ولا تقل ماذا يجني العالم من جبي ، وأنا فرد وحيد . . ؟ فكما قلت لك أولا : لست وحيدًا . . فهناك في كل مكان من كوكبنا تتكاثر وتنمو الأعداد الهائلة من رفاقك المحبين .

ومنك ، ومنهم ، تتكون إرادة الخير المشتركة التي تتحول إلى قدَرٍ إنساني – يُرِيد . . فيكون له ما يُرِيد . . ! !

على أن شَحْذَ إحساسك بالأخاء العالمي ، وبالصداقة البشرية ، ضروري لك ، لتكون إنسانًا . .

والحب ، للروح ، كالهواء للرئة . . كلما تلقت الرئة هواء

نقيًا ، قادما من المساحات الواسعة الطلقة ، ازدادت به حيوية وقوة .

فَدعْ روحك تتنشَّق حب المساحات الواسعة . . ! !

وَدعْ وجدانك يمتلئ بالصداقة لكل شيئ طيب ، لا بين الناس وحدهم . . بل في كون الله الرحيب . .

كان القديس « فرانس » يقول : « أخي الطير » . . . ! !
وإنه بهذا لَيُشارِف حقيقة الوجود . .

فالكون كله صديقنا – الأرض . . الشمس . . القمر . . النجوم . . الناس . . النبات . . التلال . . الأنهار . الزهور . .

الكون كله . . العالم كله . . معنا ، ولنا . . ! !

وإن روحك إذا كانت طيبة ، لن تشبَعَ حُبًّا ، فَدَعْهَا تُصافِح كل شيئ . . فكل شيئ لها صديق . . ! !
دعها تحب كل ما وجد لكي يُحَبَّ ويُؤْلَف . . .
دعها تُعزِّز صداقاتها ، وتُنَمِّ مَودَّاتها . . . ! !

* * *

إن الحب يتقدم لينشئ عالما جديدًا . . عالما من خلْقنا ، ومن روحنا . . فتقدم معه . .

لا تقل : كيف السبيل ، فأنت هو السبيل . .
وليس عليك إلا أن تكون مُحِبًّا . . . ! ! !



الوصيّة الثانية

لا تدَع الخوف يُفكر لك
أو يُشِرْ عليك ..
وَطهّر منه إرادتك ..
وَعِشْ قوِيّاً ..

لا أعرف عدوا للإنسان . خرج عليه من غابات الزمن ، وملأ حياته بالشِّقوة والألم مثل الخوف . . ! !

إنه عدو ضارٍ ، مُقوِّض ، وَبِيل . .

ولسوف يحدثوننا عن مزايا الخوف ، باعتباره المِهماز الذي دفع عجلة التقدم الإنساني . .

فخوفُ البشرية من المرض ، شحذَ اهتمامها بالصحة . . وخوفُها من الجهل ، حفزها إلى الاهتمام بالعلم . . وخوفها من الحرب ، حشد صفوفها في جبهة السلام – إلى آخر هذه المقابلات . . .

بيد أن هذه الأمثال لن تخدعنا عن حقيقة الخوف ، ولن نكون من السذاجة بحيث نرضى عنه أو نتخذ منه صديقا . . !

فهذا النوع من الخوف – خوف الجهل ، والمرض . والحرب ليس هو الخوف الذي نُفْرِدُ للحديث عنه هذه الصفحات .

فمخاوف الجماعة الإنسانية المتمثلة في آفات حياتها ، وحواجز تقدمها كجماعة ، هي بالفعل مخاوف نافعة وحافزة .

فالإحساس بها ، إحساس جماعي . . ومقاومتها ، مقاومة جماعية . . والجهود الإنسانية كلها في تعبئةٍ مستمرة لمناهضتها وتلافِيها ، ومن ثَمَّ فهي لا تنال من طمأنينتنا ؛ لأن الإجماع الإنساني على مجاوزتها ، يحمل إلينا الإيناس ، ويمنحنا حاسة التهكّم عليها . . !

أما المخاوف الماحِقة ، فهي تلك التي تنتاب الأفراد ، وتنهش أفئدتهم . .

تلك التي يحملون وحدهم لأواءها ومَفازِعَها ، وتجعل منهم مأساة محزنة . !

صحيح أن في طبيعتنا الإنسانية قدْرًا من الحاجة إلى الخوف ، نُحاذربه الأخطارونتقيها ، ونتوخّى به سلامة خطانا وأمن مصيرنا . .

بَيدَ أنَّ هذه الحاجة يجب أن تُلَبَّى بحكمة ، وعلى أضيق نطاق ؛ حتى لا تتحول إلى آفة مُهلكة . .

إن في جسومنا مقادير من الدم نحيا بها ونعمل . لأن الدم هو الحياة . . .

فإذا ذهب أحدنا ، وأراد أن يمنح جسمه عافية أكثر ، فيصبّ في أوردته دمًا يزيد عن حاجة جسمه . فإنه يعرض نفسه للدمار . وبالدم الذي هوسبب الحياة ، يفقد الحياة . . ! !

فما تحتاجه نفسك من الحذَر . يجب ألا يجاوز حده . .
وعليك أن تفرق دائمًا بين للحذر النافع الذي تقتضيه غرائزنا السوية ، والخوف المقلق الذي تفرزه الأوهام وتعقيدات العيش .

فحرر نفسك من الخوف . وكن قويا . .

إن سفير دولة قوية ذات مَهابة وقوة ، يبدو في أي بلد غريب يذهب إليه . سيدًا مهيبا ؛ لأنه يحمل معه أينما سار ، هيبة بلاده وجلالها . .

وأنت – كائنا ما تكون – تمثل نوعك الإنساني كله . .
ومعك القدْر الذي تريده – من قوة هذا النوع وغلَبتِهِ . . .

بل أنت بوصفك إنسانًا تمثل « الله » في هذا الكوكب . .
وبوصفك فردًا ، فإن معك جزءًا من النفوذ الذي يقتضيه هذا الاستخلاف ، وهذا التمثيل . . ! ! !

ومهما تكن ظروفك ومقدرتك ؛ فإن في مكنتك أن تتفوق على كل عوامل الخوف .

في استطاعتك أن تكون قيصرا من غير طغيان قيصر . وأن تكون هِرَقْلاً ، من غير غرور هرقل . . ! !

في استطاعتك أن تواجه الأمواج مبسوط الذراعين ، وأن تَبتسم للهول نفسه ، فإذا هو هَباء . . ! ! !

إن طبيعتك مُزوَّدة بقدر كاف من الطمأنينة والثقة ، فإذا تركته للبوار – فإنك بهذا تبدد رصيدًا ثمينًا . .

حرك قوى الثقة والأمن في نفسك ، واستعملها بحنكة ودأب . تتخلص من مخاوفك أولا فأولاً . .

ولكن ، ماذا . . ولماذا نخاف ؟ ؟

سأجاوز بك مرحلة الطفولة ، على الرغم من أنها البئر التي تختبئ فيها معظم جذور مخاوفنا .

سنجاوزها ، لأن هذا الكتاب ليس بحثا في علم النفس . . وسنبدأ من حيث تبدأ مسئوليتنا عن أنفسنا . . حين يبدأ إحساسنا بالمسئولية، ورغبتنا في أن نباشر حقوق نُضجنا . .

إنك شاب يافع ، تحمل داخل إهابك نَفْسًا ، أنت عنها راض ، وبها واثق . .

وكثيرًا ، ما تتبدَّى لنفسك كما لوكنت « دولةً ذات سيادة » . . لها رايتها ، ولها حدودها ، ولها نفوذها واستقلالها . . ! !

لا بأس أن تكون كذلك . . بل أنت كذلك فعلا . .

ومن هذا التشبيه ، بل من هذا الواقع دعنا نبحث القضية . .

إنك كدولة ذات سيادة ، ترفض العدوان . . ترفض التطفل

على أسرارك ومَسلكك . . ترفض أي انتقاصٍ من حقوقك .
وتذود بمنتهى التصميم عن حرمة ضميرك وروحك . . ! !

وأنت – كدولة ذات سيادة ، لا تعيش في كوكب وحدك . .
بل تعيش على نفس الكوكب الذي تعيش فوقه دول كثيرة ذات
سيادة . . ألفان وخمسمائة مليون دولة ، بعدد أفراد البشر الذين
سيعتبر كل منهم نفسه دولة ذات سيادة . مثلك تماما . . ! ! !

والدول . لكي تزدهر . وتطمئن . يجب أن تكون موفورة
القُوَى . ويجب – قبلاً – أن تكون على علاقات سليمة وعادلة
وطيبة مع الدول الأخرى . .

فعلاقاتك بالناس ، وبالبيئة ، هي مركز الحساسية في
طمأنينتك أو فزعك . . في سلامتك أو خذلانك . .

وعلى الرغم من أن طفولتك تتحكم فيك إلى حد مّا . .

وعلى الرغم من أن ميراثك من آبائك وأجدادك يقودك إلى
حدّ ما ، حتى ليكاد يجعل منك – كما قال قائل – « عربة كبيرة
يركبها جميع أسلافك . . ! »

على الرغم من هذا كله ، فإن مسئولية حياتك مَنُوطة بك
وحدك . . ومن ثم ، فإن علاقاتِك بالناس، مسئوليتك وحدك ،

وتَبِعتك وحدك . .

والآن : اذكر هذا جيدًا . . .

إن أعظم ما يوفر لك الأمن والطمأنينة ، أن يربطك بالآخرين علاقات سديدة مستقيمة . .

والآخرون هم – الناس . . الأسرة . . الشارع . . المعهد . . الأصدقاء . . الغرباء . . المجتمع . . الحكومة . . القانون . . العرف . .

كل فَزع يغشانا ، يبدأ انطلاقه من هنا – من الخلل الذي يصيب علاقاتنا بغيرنا . .

وقانون هذه العلاقات يمضي في دقة عجيبة ، تجعل القصاص ضربة لازم . . ! !

إن القاتل الذي قتل خفية ، أو السارق الذي سرق خفية ، يعيشان في فزع وقلق . .

لماذا ، مع أن أحدًا من الناس لم يرهما ، وبالتالي فإنهما بمنجاة من قصاص القانون والناس . . ؟ !

السبب أن علاقاتهم النفسية بالجماعة ، قد اضطربت حين أخلُّوا بالعلاقات الظاهرة القائمة على العرف والقانون . .

واقتراف العدوان - سرًا كان أم علانية - يعني أن خَطًّا من خطوط الاتصال بالناس وبالمجتمع . قد عُطِّل أو قُطع . . ويعني في نفس الوقت ، أنك فقدت مركزًا من مراكز حِراستِك . .

ومن الناس من يتمادى في الإخلال بعلاقاته الاجتماعية والإنسانية ، وهو بهذا يتلف جميع الخطوط التي تصله بالناس ، وتحمل إليه ثقتهم وحُبّهم وحدَبَهُم . وفجأة تَحْتَوِشُه الوحدة والفزع ويقول : إني خائف . . ! !

أجل - أنت خائف - لا لأن الناس يخوفونك . ولا لأن المجتمع يفزعك . . بل لأنك أقْصيت عن نفسك كل أسباب الأمن والسكينة ، حين أقصيتها عن الجماعة التي تعيش معها بإتلافك كل وسائل الاتصال بها والتلقي عنها . . !

فاجعل علاقاتك دائمًا في أحسن تقويم . .

اجعلها عادلة ، مستقيمة ، وقُمْ بكل واجباتها والتزاماتها . .

لا تنتظر أن تعتدي ؛ ثم تعيش مطمئنًا . .

إن للحياة قدَرها الذي لا يغفل عن القصاص ، ولا يُحابِي . .

واعلم أن كل عدوان تأتيه ، فإنما هو هاتف ينادي إليك الخوف والفزع .

ولست أعني بالعدوان هنا - العدوان المحسوس وحده - بل

والعدوان النفسي قبلا . .

فمجرد إضمارك السوء والشر عدوان . . وهو بالتالي إتلاف لعلاقاتك وانحراف بها . .

فطهر نفسك من كل انْتِوَاء رديْ . . وطَعِّم روحك بنوايا الخير ، والقصد ، والحق . تجد الشجاعة مُثابِرة على صحبتك . . والأمن سريع الخطى إليك . . وتجد روح الشجاعة والثقة . تخفُّ دائمًا إلى نجدتك . . ! !

ما أصدق الحكمة التي قالها « كونفشيوس » :

« حياتي ، هي صلاتي ، والذي يعيش عيشة صالحة ، لا يخاف شيئًا على الإطلاق » . . ! ! !

صحيح أن ثَمَّةَ ناسًا كثيرين يسيرون على هذا الصراط ، ثم لا يسلَمون من آفات الحياة . . !

أجل . . ولكن آفات الحياة هذه ، لن تقدر أبدًا على إخافتهم وتفزيعهم . . إنها لن تزيد عن كونها مضايقات . . مجرد مضايقات . .

أفيسوؤك أن تضع الحياة في طريقك بعض مضايقاتها . . ؟ لقد وضعت هذه المضايقات في طريق جميع الذين اصطفتهم

للقيادة ، والعظمة ، فلا تَضِقْ بها أبدًا . . .

* * *

إذا صححتَ علاقاتك بما حولك ، فالمخاوف كُلُّهنَّ أَمان . . ! !

وما دمتَ تحيا بين الناس حياة عادلة ، فسيكون في قلبك من الشجاعة والأمن ما يمنحك غبطة لا يقدر على شرائها مِلءُ الأرض ذهبا . .

ولكن ، هل سيُنهي ذلك مخاوفك . . ؟ ؟

أجل . سينهي مخاوفك من الناس . .

ولكن تبدأ مخاوف أخرى . .

الخوف من الغيب . . ! !

خوفك من المستقبل المحجوب . .

خوفك من الله . . .

خوفك من الموت . . .

وهنا ، كما هناك . . لا سبيل للتحرر من هذا الخوف إلا بنفس الوسيلة السالفة . . تصحيح علاقاتك وإضاءتها بنور الفهم والخير . .

لقد صار الناس يتسلَّوْن بأصوات الرعد والبرق ، وبمنظر

الشهُب التي تخترم الفضاء . . بعد أن كانوا قديمًا يَهْلَعُون منها ويفزعون . . فلماذا . . ؟ ؟

لأنهم بالأمس كانوا يجهلون حقيقتها، وكانت علاقاتهم بها وبالكون كله ، تَستمد من هذا الجهل سلوكَها ، فيربطونها بغضب الآلهة ، ويرونها سوط عذاب . . !

فلما فهموا ، وعرفوا ، واستقامت علاقاتهم بها على جادَّةِ المعرفة والفهم ، ذهب الخوف منها إلى منفاهُ البعيد . .

* صحح علاقتك بالغيب فإنك لن تفزع منه أبدًا . .
* وصحح علاقتك بالمستقبل . بأن تعمل له في سداد . .

إن المستقبل ليس شيئًا غريبًا عنك . إنه امتداد لحاضرك . . فاذا وفّرتَ لعملك اليوم أقصى أسباب السلامة والإجادة ؛ فإن عملك غدًا - وهو ما نسميه المستقبل - سيكون سليمًا جيدًا . .

صحيح أن دُروب الغيب كثيرًا مَا تَفْجَأُ الناس بما لم يكن لهم على بال .

لكن لا ريب في أن أكثر هذه المفاجآت ؛ تجيءُ ثمرة أعمال لنا سابقة . وأخطاء سالفة . .

وقليل من هذه المفاجآت ، يكون كأنما صُنع في غيبة منا ،

ولكن أي جدوى في ترقب مثل هذا الغيب ، وحملان هموم أمور لم تقع ، وقد لا تجيءُ أبدًا . . ؟ !

فَدعِ التوقُّعَ للحوادثِ إنه لِلحَيِّ مِن قَبلِ المماتِ مماتُ

* * *

وصحح علاقتك بالله . بأن تحاول الاقتراب من فهم الله . .

إننا نخاف الله : لأنه توعَّدنا بعذابه . . . عجبًا ! ! أو لم يَعِدْنا كذلك برحمته التي وسعت كل شيء . . ؟ ؟

إن أباك قد يخوفك . بل قد يقسو عليك لصالحك : فهل لا تعرف من أبيك إلا أنه الرجل الذي يهشُّ عليك بعصاه . . ؟ !

أبدًا . . فعلاقتك بأبيك تقوم أولاً ، ودائمًا على أنه أبوك الحاني . . الذي يطعمك ويَكْسُوك . . ويشتري مَسرَّاتِك بالدَّيْن . . وتتلخص مباهج الحياة عنده في هذه الكلمة : «ابني» . . . ! !

فاذا خَوفَنا الله ، ولوَّح لنا بالعقاب ، فليس معناه أنه المنتقم ثم لا شيء . . .

كلا . . إنه الرحمن الرحيم ، السلام ، الغفور ، الودُود . .
إنه القُدُّوس الذي لا تحركه الغرائز الغاضبة . .
إنه الكمال المطلق . . .

فأقم علاقتك به سبحانه على الحب ؛ والرجاء ، والهدى . . !

* * *

وصحح علاقتك بالموت ، بأن تدرك حقيقته ، وبأن تستعد له بحياة طيبة . .

فما الموت إلا انتقالٌ إلى أفضلَ وأهنأ . . لكنَّ الأساطير التي أحاطت به ، ووضعته داخل إطار من الشوك والأذى ، والهول . . هي المسئولة عن تشويهه وتحريف حقيقته . .

لا أذكر أين قرأت لحكيم عبارة تقول :

= « حين كنتَ جنينًا في الرحم ، كنتَ ناعم البال هادئه . . حتى إذا حانت ساعة رحيلك عنه إلى الدنيا . قاومت الخروج حتى استعانوا عليك بالقابلة « المولدة » . . وأخيرًا نزلتَ صارخًا - مُضمِّنًا صُراخك هذا ، احتجاجك على الذين أخرجوك من جنتك . .

« لكن حين كَبِرْتَ ، اكتشفتَ جمال الحياة وتعلقت بها . .

« وذات يوم آخر ، ستُدعَى إلى الرحيل عنها ، وأنتَ تجزع سلفًا من هذا الرحيل الذي تسميه الموت . .

« ألا تتخذ من تجربتك الأولى عِظة ودرسًا . . . ؟ !

« ألم تُغادر – من قبل – حياة الرَّحِم إلى حياة أجمل منها . . ؟ فلماذا لا تكون بما نسميه موتا ، ذاهبا إلى حياة أكثر جمالا » . . . ؟ ! ! ! !

* إنها صورة عذبة . وإذا كان فيها خيال ، ففيها حقيقة . .

فالموت لا يمكن أن يكون شيئًا كريها ما دام جميع الناس يعبرُون جِسره ، ويَكْرعُون كأسه . . !

ليس في الموت سوى ألم الفراق . . فليأخذ مكانه بين مضايقات الحياة . . ولْتُنَحِّ عن نفسك كل خوف من الموت والرحيل . . .

* * *

والآن دعني أحدثك عن خوف آخر ، مُعوِّق ، ووَبِيل . ذلك هو : الخوف من المسئولية . . .

وهنا أقدم إليك هذه الحكمة الجليلة !

« افعل ما تتهيَّبهُ ، فإذا موت الخوف مُحقَّق » . . ! ! !

أجل : في نطاق مسئولياتك – صغيرها ، وكبيرها . . افعل ما تتهيبه ولا تخف . . .

إن الشجاعة تحمي نفسها من الزلل المحطِّم ؛ لأن الشجاعة

تنطوي على الحكمة . . وهذا فارق بينها وبين التهوّر ، عليك أن تلحظه . .

الشجاعة – اقتحام تقوده الحكمة . .

أما التهوّر ، فصيحة ، يدفعها النّزق . . . !

باشر مسئولياتك بشجاعة . . ومارسها في حدود طاقتك وظروفك ، فليس من حقك أن تحمل مسئولية لا تُطيقها ، وتعرض نفسك لبلاء لا تطيقه . .

ضَعْ عينيك دائمًا على إمكاناتك في غير تهيب ، وأيضًا في غير تهور. ووازن بين ما تريد أن تعمل ، وما تستطيع أن تعمل . .

لا تُلْقِ نفسك من حَالِق ، رغبة في أن يقال « يا للبطل » . . ! !

ولا تُعامل الحياة كما لو كانت « سركا » – قفزة هنا . وقفزة هناك . . بل فكِّر بذكائك ، وقاوِم بذكائك – وقاتِل – إذا اضطُرِرْتَ للقتال – بذكائك . . ! ! !

وأُولَى سِمَاتِ الذكاء هنا – ألا تُستدرجَ إلى مسئولية تقوم بين طاقتك وبينها استحالة لا تملك تذليلها . .

كان الرسول عليه السلام يقول :

= « لاينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه.قيل : وكيف يذل نفسه يا رسول الله » ؟ ؟

« قال : أن يُعرِّض نفسه لما لا يطيق من العمل ، فَيَعْرِضُ له ما لا يُطِيقُ من البلاء . » . . ! ! !

ففي ضوء جميع الظروف ، اختر مسئولياتك ، وإذا اخترتها ، فقم بكل التزاماتها جاعلا شعارك حكمة – فيكتور هيجو– :

« إني أرى ؛ لا أكثر . . . وأومِن ؛ لا أقلّ . . . أما العواقب فشيءٌ لا يدخل في حسابي » . . . ! !

لا تخف المسئولية أبدًا ، فذلك الخوف شر أنواع المخاوف ، وأكثرها هدمًا لروح التقدم .

وإذا كانت هذه المسئولية تتعلق بنفسك ، أم بالناس . . بأمور عادية ، أم بجلائل الأعمال . .

ابذل فيها – مهما يكن طرازها – كل روحك وجهدك . . فعظَمةُ الروح لا تتجزأ . وهي في الأعمال الضئيلة . مثلها في الأعمال الجليلة ، شامخة بأسلوبها ، وبصدقها . .

ثَبِّت نفسك بالقدوة العظمى التي ضربَها للناس خيارهم . . انظر : هذا « رسول الله » يحتضن مسئوليته في رُسوخ

أشمّ . . ويضع لتهديدات قومه ومناوراتهم حدا فاصلا ورادعًا من تصميمه . . ويترك للدنيا أبلغ الدروس في إيثار الحق ، وتحمل المسئولية . .

= « والله . لو وضعوا الشمس في يميني . والقمر في يساري ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه . . » ! ! !

وهذا ، أخوه « المسيح » . . يبصر أكثرية قومه . تتحول إلى خِرافٍ ضالّة – تحترم الباطل ؛ وتمتهن الحق ، وتكذب على الله . .

ويحمل مسئولية الموقف كله . . وحيثما كان يسير ، كانت جثث الهداة قائمة على الصلبان التي أقامها لهم الباطل – تلفحها الشمس والرمال ، وتهوي عليها الطيور الجارحة الجائعة . فلا يفتّ في عضده المشهد ، ولا تستجيب في نفسه ذَرّة واحدة إلى دواعي التقهقر . ! ! !

ويمضي في وَلاءٍ فَذٍّ لمسئوليته وعمله . .

لا تقل هذا محمد ؛ وهذا المسيح . . ؛ فمن يبلغ شأْوهما . . ؟ !

فهناك أعداد هائلة من الذين لم يجبُنوا عن مسئولياتهم ولم يهربوا منها أو يفرّطوا فيها . .

هذا « ابن تيمية » يناهض في أيامه الذين يحكمون الناس

بالظلم ، والذين يملأون عقول الناس بالخرافة ، فيؤذَى ، ويُضطَهد ، ويُحاط بكل صَنوف الأذى ، فلا يلقي مسئولياته من يمينه . بل يتهكم على مضطهديه فيقول :

« ماذا يصنع الأعداء بي ؟ إنَّ حبسي خَلوة ، وقتلي شهادة ، ونفيي سياحة . . فماذا يصنع الأعداء بي . . » ؟ ! !

وهذه سيدة ، ترى صرعَى العلة يتهاوون كالعِهْن . . وتلتمع أمام بصيرتها بادرةُ أمل في كشف الدواء الناجع . فتحمل من فورها مسئولية هذه البادرة كما لو كانت رسالة تلقى إليها ، ووحيا ينزل عليها ، فتثابر ، وتضيُ ، وتعيش وزوجها في « بدروم » منزل . . ويحيق بتجربتها العلمية فشل تِلْوَ فَشَل . ولكنها تُثابر ، وتَحمل مسئولية لم يكلفها بها سوى ضميرها الحي الباسل ، ويَذْوِي عودها تحت وطأة الفقر ، والسهر . والمحاولة . . . حتى دقت الساعة التي قال الله فيها لها :

– الآن خذي ثوابك بغير حساب – وتفتحت أمامها مغاليق السر ، ووضعت يدها على « الراديوم » وأخذت مكانها في الخالدين ، ورفضت في إصرار رُهباني أن تُسخِّر كشفها وجُهْدها لسماسرة الشقاء حين حاولوا أن تأذن لهم بتحويل الخير الذي كشفته إلى أداة قتال ، تَقتل وتُبيد . .

أتريد أن تعرف أخت البشرية هذه . . ؟؟

إنها « مدام كوري » . . ! ! !

• • •

وكان هنا ، في وطننا هذا . . رجل معه من المال والجاه ما لا يجد معه من وقته فراغاً – أيَّ فراغ – يملؤه بعمل جاد . فضلاً عن أن يملأه بتضحيات تزهو على معظم ما عرف البشر من تضحيات . . ! !

ألْفَى أمته تُسام الخسْفَ والذل ، فخلع جاهه ، وجعله لها دثارا . . وجمع ماله ، وجعله لقضيتها فِدية . . وترك القصر ، ودخل السجن . . ثم قضى حياته محروما من كل راحة . . بعيدًا من كل مَرْفأ . . حتى مات غريبًا لا يجد ثمن الدواء . . ! !

أية شجاعة منقطعة النظير ، حمل بها « محمد فريد » مسئولياته . .

هذا الرجل الذي لا تكاد عظمته تترك إلى جوارها مكانا لمنافس أو مُزاحم . . .

هذه القدوة السامقة جدًا . . الطاهرة جدًا . . ! ! !

• • •

لا تخشَ شيئًا ما ، إذا دعتك مسئولياتك . وناداك واجبك .

وسواء كانت هذه المسئوليات ، عملا سياسيًا ، أو اجتماعيًا ، أو علميًا . . عملا في مستوى القِمَّة ، أو في مستوى السَّفح . . وسواء كنت وزيرًا ، أو كاتب « أرشيف » . . ! !

لا تلق مسئوليتك على الأرض ، خوفًا من حق لك قد يضيع ، أو منفعة ترجوها ، أو صداقة تحرص عليها . .

لا تخش رؤساءك في العمل ، إذا اقتضت مسئوليتك العادلة أن تقول لهم : لا . . .

فليس في الحياة أمتع ولا أبهج من « لا » هذه . عندما يُدْفع بها باطل ، وعندما يَتوجَّه بها الأدْنَى إلى الأعلى . . والأضعفُ إلى الأقوى . . ! ! !

إن هذه المواقف قبل سواها ، هي التي تؤكد عظمة الحياة وقوتها .

حين مات الإمام « محمد عبده » توجَّه ناظر الخاصة الخديوية ، إلى شيخ الأزهر يومئذ — وكان الشيخ « الشربيني » طالبًا منه ألاَّ يشترك هو والعلماء في جنازة « محمد عبده » الذي كان على خلاف حاد مع الخديو . .

ألقى مبعوث الخديوي بهذه الرغبة السامية إلى الشيخ ، فهز الشيخ رأسه وسكت ، واصطَبر حتى شرب ضيفه قهوته ،

ثم التفت إلى الشيوخ الذين حوله ، وقال : هيا بنا - يا مشايخ - فقد حان موعد الجنازة . . ! ! وقَهق ناظر الخاصة من مفاجأة لم يكن يتوقَّعها ، وقال لشيخ الأزهر:ألم أبلغك رغبة أفندينا . . ؟

فانتفض الشيخ العظيم قائمًا ، ولوَّحَ بيدٍ عزيزة وقال :

« إن الله وحده هو أفندينا » . . ! !

بالله ما أروعَ هذا ، وأمجده . . ! ! !

اجعل كلمة الشيخ « الشربيني » شعارًا لك . واذكرها إذا دعتك مسئولياتك الأمينة لمخالفة رئيس لك تحاذِره وتخشاه . .

ولا تُتِحْ للأوهام أن تظفر من طمأنينتك وشجاعتك بطائل . .

إن الوهم أكذب الظنون ، فاربأ بعقلك أن يكون له عُشًّا ومأوى . ! !

* * *

وبعد ، فهناك قاعدة علمية تقول : ليست الشجاعة « إلغاء الخوف » إنما هي « إخفاء الخوف » . .

وإخفاء الخوف هنا ، لا يعني كتم مظاهره ، بينما النفس من داخلٍ تُزلزِلُ زِلزالها . .

. وإنما معناه التفوق على كل بواعث الخوف ، وتفسيرها

التفسير الذي يكشف لنا حقيقتها ، ويذهب بالكثير من توهّم أخطارها .

ولستَ بحاجة إلى طبيب نفسي ، ليزرع في قلبك الشجاعة ، إنما أنت بحاجة إلى الفهم والإرادة .

الفهم الذي يفضح سلطان الخوف الكاذب . .

والإرادة التي تضع بَدِيلَ هذا السلطان الزائف ، حكمة وقوة وصلابة . .

الفهم ، والإرادة اللذان يجعلانك تبتسم وأنت تكافح . . واللذان يَهيبان بك أن : – « لا تخف . . فإذا غلبك الخوف ، فامضِ في طَريقك وأنت خائف . » . . ! ! !

فتقدم ، وكن شجاعا . . .

إن الرجل الشجاع لا يتلفت يَمْنَةً ، ولا وراء . . ! ! !

إنه لا يتسوَّلُ العون ، ولا يلتمس من غير نفسِهِ شجاعةَ نفسه . .

إنه – مركز الدائرة – حيث يكون .

وهو بشجاعته لا يربح الحياة لنفسه وحدها بل ويُمكِّن الآخرين من أن يربحوها . .

فحيثما يوجد القوي الشجاع ، يشعر الذين حوله بالقوة والأمن .

بل إن شجاعته لَتشُقّ الطريق أمام الأجيال القادمة التي تندفع وراءه مطمئنة ، تقول لنفسها :

هذا الطريق – لا ريب – مستقيم ، لأن رجلا شجاعًا قد سار فيه . .

فتقدم وكن شجاعًا . .

إن الذين قادوا المصير الإنساني نحو مَطالِعِه ، كانت الشجاعة ، صفتهم المميزة . .

الذين قاوموا جمود الحياة ؛ وعجزها . .

الذين شنوا حملاتهم الظافرة ضد كل تأخر ، وانحطاط ، وجَهالة . .

الذين هدموا قلاع الطغيان : ورفعوا – عاليا – لواء الإنسان . .

الذين أنزلوا سفينة التقدم الإنساني إلى البحر وهذّبوا الأمواج وشكَمُوا العواصف . .

كل أولئك كانت مَيزتهم الكبرى ، أنهم تفوقوا على الخوف وعاشوا شجعانًا .

لم يتركوا الخوف يفكر لهم ، ولم يستشيروه في أمورهم ، لأنهم علموا أن الخوف مستشار أحمق – يُنجِب المقت

والكراهية . .

وفي ظل المقت والكراهية ، لا تكون الشجاعة ، بل التهور . .

ولا تكون القوة ، بل القسوة . .

والقسوة والتهور يَلِدان بدورهما مخاوف جديدة ، وعجزًا أكيدًا ؛

لأن الذي يقسو على غيره ، يقسو في نفس الوقت على نفسه ، وتُصاب إراداته باختلال عميق ، وعطب تام ، ويرتدُّ آخر الأمر نهبا لوساوِس الهم والخوف . . ! !

* * *

هناك حكمة تقول : « لأنْ تكوْن فردًا في جماعة الأسود ، خير لك من أن تقود النعاج » . . . ! !

وهذا حق ، لأنك ، وْأنت مجرد فرد بين أسود ، تُواتيك الطمأنينة ، وإذا كنت جبانًا غمرتك عَدْوَى الشجاعة . .

وإذا فاجأتك الأخطار ، وجدتَ من الأسود دُروعًا قوية . .

فلنذكر تمامًا ، أننا نقهر الخوف ، كلما عشنا بين قوم لا يخافون . .

من أجل ذلك ، فإن الوصية التي تقول لك : لا تخف . .

تقول لك في نفس الوقت : لا تُخِفْ . . . ! !

إذْ بِمقدار ما تُزجي للناس من أمن ، تتلقى منهم الطمأنينة والأمن . . . فلا تكن قط مصدر خوف لغيرك ، إذا أردت أن يكون غيرك مصدر طمأنينة لك . . ! ! !

إن التجربة الإنسانية تؤكد أن أكثر الناس خوفًا وجبنًا ، هم الجبارون الذين يملأون قلوب الناس رعبًا . . هم القساة الذين يسلبون الناس أمنهم . . ! ! !

فلا تكن مصدر خوف لجارك . . ولا لزميلك . . ولا لمرءوسك . .

لا تُخِف أولادك ، إذا كنت أبًا . .
ولا تُخف مرءوسيك ، إذا كنت رئيسًا . .
ولا تُخِف شعبك ، إذا كنت حا كمًا . .

إن العدالة تعاقب باعِثِي الرعب ، بأن تردَّ الرعب إلى أفئدتهم مُضاعَفا . . وبأن تحرمهم نعمة الحياة بين قوم أقوياء آمنين . . ! ! !

فابذل جهدك لكي تزيد من عدد الناعمين بالطمأنينة . واجعل الناس يلتمسون في جوارك الدفء ، وفي قلبك الحنان ، وفي أيامك العافية . .

لا تُخِفْ ، إذا أردت ألاَّ تخاف . .
ولا تَخَفْ ، إذا أردت أن تحيا . . . ! !

الوصية الثالثة

إنسج قريباً من الشاطئ،
وارتكب أنظف الأخطاء،
ولا تُقايض على الفضيلة بشيء..!!

عندما قال « سقراط » ! – « لا فضيلة بلا معرفة » . .
كان يُسلِّط أذكى الأضواء على قضية الفضيلة كلها . . ! !

فأنت ، وأنا ، والآخرون – إنما نهرب من الفضائل
بدافع الجهل أكثر مما نهرب بدافع العجز . .

وجهلنا هنا ، ليس جهلاً بنوع الفضيلة . . بل بقيمتها
وحقيقتها . . فأكثرنا يحسب الفضيلة « كَبت الهوى » . . ! !

بينما حقيقتها أنها التعبير السديد عن أسمى مَناعِم الهوى
ومباهجه . . . ! !

أكثرنا يظن أنها تضحية بالسعادة . .

بينما هي أوفَى وسائل تحقيق السعادة . . ! !

ونحن – غالبًا – بحاجة إلى وقت طويل ، وإلى مُعاناة
أطول ؛ لكي نعرف . .

وسعداء هؤلاء الذين يأخذون التجربة الإنسانية من قريب ،
وينتفعون بها ، حين تقدم إليهم طبقًا شهيًا . لم يمسَّهم لغُوبُ
إنضاجه ، ولم تلفحهم نار طَهْوِه . .

سعداء ، لو أنهم يتعظون . .

فهل أنت واحد منهم ، أوهل تحب أن تكون هذا الواحد . . ؟

هل تريد أن تنعَم بهواك من غير أن تفقد نفسك في لُجَجِه . . ؟

هل تريد أن تكْرَعَ من لذات الحياة ، وتنال من طيباتها حتى ترتوي وتشبع . . ؟

هل تريد أن تكون حياتك موكبًا مستمرًا من المباهج والمسرات . . . ؟

هل تريد أن تعيش « أَبِيقُورِيًّا » في أبهج ، وأرحب ، وأعلى مستويات « الأبيقورية » . . ؟ ؟

وبعبارة واحدة :

هل تريد أن تعيش في لذة لا تنتهي ، وغِبطة لا تبلىَ . . ؟ ؟

أسمعك تقولُ : نعم . . فأنا لن أجيْ الحياة مرة أخرى .

ومن ثم أريد أن آخذها جميعًا : وأحياها . . ! !

وأقول لك : حسن هذا . . وإذن فإليك السبيل :

لا تُقَايِضْ على الفضيلة بشيْ . . ! ! !

* * *

وسيكون من حقك أن تسأل : أيةّ فضيلة هذه التي لا

أقايض عليها بشيء . .

الفضيلة ، كما أراها . . أم كما يراها غيري . . ؟ ؟

الفضيلة ، كما يراها الناس اليوم ، أم الفضيلة كما كان يراها آبائي الأقدمون . . ؟ ؟

وأجيبك : فضائل عصرك . .

وتعال نبدأ الحديث معا . .

إن هذه الصفحات لا تنتظم بحثا فلسفيا عن الوصايا التي تحملها ، ومن ثم ، فلا نريد هنا أن نخوض في فلسفة الأخلاق .

ولعله لا يكون من الخوض في فلسفتها ، أن أقول لك :

هناك : « قِيَمْ » ، . وهناك : « فضائل » . .

لنقل مثلا ، إن القيمة تشبه الشمس . .

والفضائل ، تشبه الكواكب التي انقذفتْ منها ، والتي تدور في فلكها . .

وكما أن حياتك « البيولوجية » تقوم صلتها المباشرة ، بالأرض لا بالشمس . .

كذلك ، حياتك الأخلاقية ، تقوم صلتها المباشرة ، بالفضائل ، لا بالقيم . .

وكما أن الأرض ، الواسطة بينك وبين الشمس بكل منافعها .

فكذلك الفضائل ، هي الواسطة بينك وبين القيم بكل مزاياها .

وكما أن الأرض في دورانها حول الشمس تُنشئ الليل والنهار، والظلمة والضوء ، والصيف والشتاء ، والربيع والخريف . .

كذلك الفضائل ، في دورانها حول القيم تعطي الحياة ألوانا شتى من السلوك . .

فكَما أن حركة الأرض ، تجعل النهار الذي تعيشه الآن - ليلا عند قوم آخرين .

فإن حركة الفضيلة كذلك - تجعل الخير الذي عندك اليوم ، شرًا عند آخرين . .

فالقيم ثابتة . . أو هي في حركة حول نفسها ، لِتحتفظ عن طريق هذه الحركة بثباتها .

والفضائل متحركة ، متغيرة ، متطورة .

فالحق - مثلا - قِيمة . ولكن فضائل الأخذ به مختلفة - فبينما يرى قوم - أن فضيلة الحق في الميراث أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين . . يرى آخرون أن فضيلة الحق في الميراث

أن يستوي الذكر والأنثى . . بينما يرى فريق ثالث ، أن فضيلة هذا الحق – ألا ترث المرأة أبدًا . . إن الحق ، كقيمةَ ، واحد لا يتغير . .

ولكن طرائق الأخذ به وتطبيقه ، وهو ما نسميه فضائل ، يتغير بين عصر ، وعصر ، وناس ، وناس . .

وأحسبك الآن : قد عرفت ما أعنيه بقولي . . فضائل عصرك . . ذلك أن لكل عصر فضائله وتعبيراته . !

وفي الأخلاق بالذات . يطول العصر – وينتظم عصورًا وعصورًا . لأن المراحل الأخلاقية تسير في أناة بعيدة المدَى . .

فحين نقول فضائل العصر . لا نعني أن لكل خمسين عامًا مثلا فضائل خاصة . . أو أن ثمت تعبيرًا أخلاقيًا شاملاً وعميا يتم كل ثلاثين أو أربعين سنة . . كلا . .

والتزام فضائل العصر ، أمر ضروري لحياتك . .

ذلك أن قوام الحياة الإنسانية شيئان ، المعرفة ؛ والخُلُق .

والفضيلة ، هي التعبير النهائي عن مطالب العصر الخلقية . .

فأنت مستقيم ، ما دمت تأخذ بفضائل عصرك . . وأنت منحرف بقدر تجنبك هذه الفضائل .

وليس معنى هذا ، أن الرواد الذين ينشقون على السائد المألوف . مُبشِّرين بفضائل جديدة أوكاشفين للحياة سُبُلاً جديدة .

أقول : ليس معنى هذا أن يكون هؤلاء أناسا غير أخلاقيين ، ومن ثم فيجب أن يُقْمَعُوا . .

كلا . . فالرواد الصادقون جميعًا ، رسل المستقبل إلى الناس . وقد ينادون بأنماط من الحياة تبدو لجيلهم وعصرهم غير أخلاقية . . بينما هي في حقيقتها أنماط أخلاقية جديدة . تتخذ مكانها لِتكوِّن سلوك عصور مقبلة جديدة . .

إنهم يكُونون أكثر من غيرهم فطنة ، وأنفذ بصيرة ، فيتلقون من السلف آخر حلقات تطوره الخلقي . وَيَصِلونها بسلِسلة الاحتياجات الأخلاقية الحديثة البازغة .

كانت مشاركة الفتاة في الحياة العامة في مجتمعنا – رذيلة اجتماعية وأخلاقية . . بل كان ارتحالها إلى معاهد العالم ومدارسه كاشفة الوجه مختلطة بالناس في الطريق – رذيلة ، وإثما . .

فما الذي حول هذه الرذيلة إلى فضيلة ، أصبح الناس يتسابقون إليها ، ويسلمون بناتهم للعلم ، وللوظائف ، وللحياة فرحين مطمئنين ؟

الذي حدث أن المجتمع تطور ، وتطورت معه فضائله . .

أنتَ كعضو في الجماعة ، مُلزَم بمسايرة هذا التطور ، وملزم أيضا باحترام الإجماع المحيط به . . فحين يجمع أهل عصر على فضائل هذا العصر . . فعليك أن تحترم إجماعهم لأن هذا الإجماع يدل على أن الناس لا يزالون بحاجة إلى هذه الفضائل بذاتها ، ويخبرنا أن موعد أنماط جديدة من السلوك ، لم يحن بعد . .

فإذا أحسست في نفسك إرهاصا بذلك الجديد ، فتقدَّم به كَتفكير لا كسلوك – كموضوع تَعْرِضه للبحث . وتُدلي فيه بمنطقك وحجتك . .

وفيما وراء هذا ، فليمض سلوكك على الأنماط القائمة ، محترما فضائل عصرك سائرًا على هُداها . .

هذه – في رأيي – أثمن وصية تتلقاها في حياتك . .
والآن دعني أعرف لك الفضيلة تعريفًا آخر . .

إن الفضائل هي الصفات النفسية للحياة . .
الحياة نفسها ، لها دستورها الأخلاقي الذي تسير عليه .
الكون كله . له أخلاقياته التي يُلزِم كل وحداته باحترامها . .
وأنت تشارك الحياة في صفاتها النفسية حين تحيا حياة فاضلة .

والإنسان الذي يشارك الحياة في صفاتها النفسيه . يمس لنفسه أقصى مباهج اللذة ، والغبطة ، والوجود . . ! !

ستكون لَذَّاتُه ، هي اللذات حقا . .

وستكون شهواته هي الشهوات النظيفة البناءة الدافعة إلى أعلى . .

من أجل هذا قلت لك . إذا أردت أن تظفر بكل نعيم ومتعة ، فلا تقايض على الفضيلة بشيْ . .

صحيح أن الفضيلة كَبْح ، ولكنها كبح للأهواء الفاسدة .

صحيح أنها تضحية باللذائذ . . ولكنها اللذائذ المسممة باللوم والندم .

إذا كنت تريد اللذة الزائفة التي تخلف لك الهم ، والسقم ، والزيغ . فأنا معك في أن الفضيلة لن تحققها لك . . وستحرمك منها .

أما إذا كنت تريد اللذة الباقية . . تلك التي لا يضيرك أن يعرفها الناس عنك . . والتي تترك في نفسك بهجة ، وفي ضميرك ابتهالاً . . والتي تزيدك اتصالاً بالحياة ، واحتراما لها ولنفسك . . فإن الفضيلة كفيلة بتحقيق كل هذا لك . .

ذات يوم سأل الرسول عليه السلام سائل عن البر والإثم :

فأجابه الرسول :

« البر ما اطمأنت إليه النفس ، ورَضِيَ عنه القلب . . والإثم ما حاك في صدرك ، وخشيت أن يطلع عليه الناس » . .

انظر أي معيار حاذق وصادق يرفعه الرسول للسلوك . . ! !

إنه يربط السعادة بالبر - ويربط الشقوة بالألم . .

لأن السعادة قطعًا في طمأنينة النفس ؛ وفي شجاعة القلب ، وهما ثمرة الحياة الواضحة النظيفة العائشة في النور والطهر . .

أما قلق النفس ، وضجر الضمير ، والحياة التي تطاردها أشباح الخوف ، والندم ، واللوم . . فتلك هي التعاسة ، وذاك هو الشقاء .

فالفضيلة . ليست ألما ولا مشقة - بل هي بهجة ورواء ، إذا أحسنا فهمها ، وإذا لم تتحول بين أيدينا إلى تزمّت ، وكَبت ، وإرغام . .

إن كل فرد منا ، يجيءُ الحياة مُزوَّدًا بالقدرة على فعل الخير ، وفعل الشر . .

والفضيلة ، ليست سلعة تباع في الأسواق - إنما هي حياة تُصاغ ، وتُشاد . . .

إن إدراك الفضيلة ، فن عظيم ، فتعال نبدأ من البداية

لنرى كيف يمكن إدراكها .

هناك وصية موجزة لكنها بليغة – قالتها أم لابنتها :

« يا بنية » لقد جئتُ بكِ إلى الوجود . . وهذا أقصى ما أملكه لك : أما بقية الطريق ، وتحويل وجودك إلى حياة ، فأمره إليك وحدك » . . .

لعل من التوفيق أن نبدأ حديثنا بهذه الحكمة . .

فأنت ، وأنا ، والآخرون – شأننا ذاك .

ذات يوم وُلدنا ، واستقبلتنا اللفائف البيض ، لا ندري من الأمر شيئًا . . . وزحفنا على الأرض ، ثم حَبَوْنا فوقها . . . ونموْنا قليلا ، فاستقبلتنا فصول المدرسة ، أطفالا نزهو بالحذاء الجديد يلمع في القدم . . وبحقيبة الكراسات ، كالمعصم في اليد . . . ومضينا ننمو رويدا ، ونكبر شيئًا فشيئاً ، وخلال ذلك نُلَقَّن من آداب السلوك ، ومن العادات ما هو شر ، وخير . . وحياتنا تنسج خيوطها . وترسى قواعدها ، دون أن يكون لنا في هذا كله دور فعال .

وذات يوم آخر ، نجد أنفسنا كبارا مسئولين . نُحاسَب على الخطأ ، ونُطالَب بالصواب . وتتقاضانا الحياة سَداد « كمبيالات » لم نكتبها ، ولم نُوقّعها ! ! ونعيش فوق الأرض ما نعيش ،

حاملين على كواهلنا كل تبعات وجودنا ؛ ومسئولياته . . .

هذه هي مأساتنا . . ولكنها في نفس الوقت عظمتنا وامتيازنا .

لأن الذي يخلق من فوضى حياته نظاما . . . ومن عجزها تفوقا وإقداما . . . والذي يرتقي بجهده من السفح المتهدم ، إلى القمة الشماء ، لا يمكن إلا أن يكون عظيما . . .

ترى ماذا نصنع – في مجال الفضيلة والخلق – لكي نبلغ هذا الشأن ، ونظفر بذلك الامتياز . . ؟ ؟

المسألة في غاية اليسر ، لاسيا حين تبدأ في باكورة العمر ، والزمام كله يومئذ في قبضتك . .

فابدأ بأن تحدد موقفك من الشر ، ومن الخطأ . . .

أنت إنسان . لا إله . . .

من الطين خلقت ، ورواسب الغابة لم يذهب بها جميعًا بُعدُ الشُّقة وتطاول الزمان . .

ولو شاء الله لأسكن الأرض ملائكة لا يأثمون . . ! !

ولكنه اختار الإنسان ، وهو به أعلم . .

وياله من دور جليل ، هذا الذي أنت واحد من الذين اختارهم الله لأدائه . .

اتعرف ما هو. . . ؟

تحويل الشر إلى خير. تحويل الرذيلة إلى فضيلة . . .
تحويل المأساة إلى بهجة . . . تحويل التناقض إلى وحدة . .
تحويل الحياة « الدنيا » إلى حياة « أخرى » . . . ! !

من أجل هذا خلقت من طين . . فيك صفاء الماء ، وغَبَرة التراب .

ومن السفح الهابط ، دُعِيتَ لتصعد القمة العالية . . ومن خَشاش طباعك ، وفوضى بيئتك ، أُمرت أن تخلق السمو ، والجمال ، والنظام . . ! !

ولقد فعلتَ — وستظل تفعل . . .

وأنت كفرد ، تخضع لعوامل كثيرة ، تؤثر في سلوكك وتقود حياتك .

وفي الحياة تلقاك شرور تراودك وأخطاء تعرض نفسها عليك . .

ولنقل إن الشر ، هو الخطأ ، في حالة تضخم واستمرار . .
أما الخطأ ، فهو ميل عن الجادة غير بعيد ، وليس له ضراوة ولا إصرار . .
سِمَةُ الشر المميزة ، أنه عدوان وأذى . .

وسِمَةُ الخطأ الغالبة ، أنه زَلَّةُ كريم . .

* * *

أما الشر فاجتهد أن تتركه كله ، فليس وراءه خير أبدا .
ولن يكون حصاده سوى العاصفة .
لا تقترف شرًا ، فإن الدَّيان يقظان ، وكما تَدِين تُدان . . .

* * *

أما الخطأ ، فلا مهرب لإنسان من الخطأ . .

من أجل هذا ، لا أقول لك . تجنب الأخطاء . . . لأن هذا يشبه أن أقول لك : تجنب الحياة . . .

إن الله يخاطب الناس فيقول : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجِنَّةٌ في بطون أمهاتكم ، فلا تزكُّوا أنفسكم » . .

فأنت يا ابن الأرض ، ويا حامل تركة الآباء والأجداد – في طبيعتك الخطأ . .

وذلك لا يعني أن تستسلم للأخطاء . . أو تُوغِلَ فيها بغير حساب.
إذن ماذا عليك أن تفعل . . ؟

هو ذا : – « ارتكِب أنظف الأخطاء » . .

اجعل هذه العبارة إحدى بل أهم قواعد سلوكك ، تَنْجُ من كثير مما يسوؤك التورط فيه . .

إذا كان لا بد من الخطأ ، فلتكن أخطاؤك كريمة ، نظيفة ، فإن الأخطاء النظيفة تحمل إمكان التحول والتعلية . .

ولا أحسبك بحاجة إلى أن أبين لك : ما هو الخطأ النظيف . فالحلال بَيِّن ، والحرام بَيِّن . . .

ولكن إذا كان في ضرب الأمثلة ما يفيدك ؛ فدعني أضرب لك هذا المثال . .

لنفترض أنْ قد شَجر بينك وبين آخر خلاف . تطوَّر إلى رفع الصوت . . وحِدَّةِ المِراء ، فتسابَبْتُما ، وتشاتَمْتُما . . .

إن تبادل السباب والشتم . خطأ أخلاقي . .

لكن هذا الخطأ ، يمكن أن يكون نظيفًا . . ويمكن أن يكون غير نظيف .

تستطيع – إذا غُلِبتَ على أمرك في هذا الخطأ – أن تمارسه برفق وترفُّع . .

فإذا اخترت للتعبير عن غضبك ، كلمات مهذبة ، حولْتَ خطأك الذي هو الغضب ، إلى خطأ نظيف مترفع . .

أما إذا استعملت الكلمات السوقية ، وتناولت الآباء والأمهات فقد ارتكبت خطأ هابطًا . . خطأ غير نظيف . .

وعلى هذا المثال ، تستطيع أن تقيس ، وتستطيع أن تتبين طبيعة الخطأ النظيف ، سواء في آداب السلوك ، أم في نشاط الغرائز ، والجنس .

إن العناية باختيار أخطائك ، وتهذيب مستواها ، آية من آيات النمو النفسي القويم .

لأنه إذا كان كل بني آدم خَطَّاء ، كما قال رسول الله . . فإن خيار بني آدم هم الذين تكون أخطاؤهم كريمة نظيفة . . وهم بالتالي الذين لا يُصِرون على أخطائهم ؛ لأن آية الخطأ النظيف ، أنه قَصْدٌ عابر . . وليس « نزيفًا » مستمرًا . . ! ! !

مرة أخرى : لا أقول لك : تجنَّب الخطأ . . لأن هذه النصيحة خيالية ، بقدر ما هي متهافتة . .

إنك لا تقول لمن تخاف عليه وطأة الهواء : احذر التنفس . . !

ولكنك تقول له : تنفس نقي الهواء . . .

كذلك من تحاذر عليه وطأة الخطأ . لا تقل له : احذر الخطأ .

ولكن قل له : « مارِسْ أنظف الأخطاء » . . ! !

وليس معنى هذا طبعاً – أن تضيف إلى هواياتك . هواية

جمع الأخطاء النظيفة . . ! !

ولكن معناه ، أنه حين تغلب على أمرك ، وتخطئ أي خطأ أخلاقي ، فمارس خطأك هذا ، في أعلى مستوياته ، وفي آنق حالاته .

وذلك كله ، تُظفِرك به العادات الصالحة حين تريد .

ضع في اعتبارك دائما ، أن تكون أخطاؤك أنيقة ، نظيفة . . وتعوَّد هذا دوما . .

وحين تتكون لديك هذه العادة سيبهرك أن تتحول الرذائل بين يديك إلى فضائل . . والمساوئ إلى محاسن . . وستلفي نفسك إنسانًا تسمو سيئاته على حسنات غيره ، وتزهو أخطاؤه النظيفة ، على كثير من الفضائل الزائفة . . ! !

قال فيلسوف فرنسي : « الذين يجعلون الرذيلة محبوبة ، خير من الذين يلوثون الفضيلة » . . ! ! !

فمن هم أولئك الذين يجعلون الرذيلة محبوبة ، إذا جاز أن تكون الرذيلة محبوبة . . ؟ ؟

إنهم الذين لا يصرون عليها ، ولا يَسعون إليها . . وإذا غُلبوا على أمرهم فيها ، حوَّلوها إلى خطأ نظيف ، لا يُخلِّف

وراءه مرارة الندم ولا ضراوة الإدمان . .

إنك إنسان ، له شهواته ، ورغائبه . . ومعه أيضًا إرادته التي تقهر الصعاب ، وتصنع المعجزات . .

والأسلوب الذي تستعمل به إرادتك لتوجيه حياتك الأخلاقية هو الذي يحدد نصيبك من النجاح أو الإخفاق . .

فالكبت ، والقهر ، والإرغام - لن تفيدك شيئًا . . بل هي تدمر الحياة . .

إن شهوات الحياة الإنسانية ، بحر - لن تستطيع أن تتجنب السباحة فيه ، ولكنك تستطيع أن تسبح قريبًا من الشاطئ . .

وحياتنا ، عالَم حافل بالشهوات والرغبات التي لن تقدر على تجنبها . ولكنك قادر على أن تختار أشرفها ، وأنظفها ، وأسماها .

وسوف تنجح نجاحًا كبيرًا في حياتك الخلقية إذا توخيت القصد والاعتدال . . فلا تَمِلْ كل الميل إلى الإحجام ، ولا تمل كل الميل إلى الإفراط .

لا تجعل القهر والإرغام ، سبيلك إلى تقويم نفسك . . بل

اجعل الحيلة، والذكاء ، هما السبيل .

وفي الحياة الأخلاقية بالذات ، تكون الطّفْرة ، والتزمُّت ، ضلالا وجهدًا ضائعًا . .

أما الخطوات الوئيدة الثابتة . . والتطور الهادئ المستأني ، فهما خير وأجدَى . .

إنك تستطيع أن تقفز إلى أعلى في الهواء . . ولكنك سترتد إلى الأرض بعد ثوانٍ سريعة . . !

* * *

هناك قاعدة علمية تقول : « لِكل فِعْلٍ رَدٌّ فعل ، مُساوٍ له في القدر ، مُضَادٌّ له في الاتجاه . . »

إن هذه القاعدة ، تَصدُق أخلاقيا ، بنفس المستوى الذي تصدق فيه علميًا . .

فإذا أخذت نفسك إلى الفضيلة بغير هَوادة — غافَلَتْكَ ذات يوم ، وانقذفت صوب الرذيلة بلا هوادة . . . بنفس القوة . . وضد الاتجاه . . .

فاحذر قمع نفسك . .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو صاحب دين من

شأنه أن يطالب بمزيد من الفضيلة والتقوى . . كان دائم التذكير بهذه الوَصَاة :

« إن هذا الدين متين ، فَأَوْغِلْ فيه برفق ، فإن المُنْبَتَّ ، لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقَى . . » ! ! !

الْعَب . . وامْرَحْ . . وتهلَّل . . واعلم أن أدنى مستوياتك الخلقية ، تتضمن أعلى ما ترجو لنفسك من مستويات . .

تمامًا ، كما تتضمن البذرة الشجرة . . وكما يكمن في الطفل الرجل . . ! !

ولكن ، كما يظهر الرجل من الطفل ، والشجرة من الثمرة عن طريق التطور ، لا الطفرة . . والمحاولة ، لا القسْر . فكذلك مستواك الأعلى ، ينبثق من المستوى الأدنى شيئًا فشيئًا . . إذا أنضجته على تجارب هادئة ، معتدلة . . لا محاولات حادة رَعْناء . .

هناك أناس يتوسلون للفضيلة باضطهاد غرائزهم ، وقهر نوازعهم . . وردم كل منابع الطاقة في طبيعتهم الإنسانية . .

هذا خطأ ، وزيْغ . .

فنحن حين نريد الظفر بفاكهة أجود مذاقا ، وأبهى عبيرًا . . لا نقتلع شجرتها من الأرض . . إنما نُطعِّمها بالنوع الأجود

الذي نريد شَبِيهه ، فتستجيب الشجرة ، وتعطي من الثمر ما نريد . . ! !

عامل نفسك هكذا . .

لا تحاول أن تقتلع غرائزك ، أو تردم منابعها . . فإنك بهذا تعطل حياتك ، وتتعجل فناءها الأخلاقي والمادي معا .

* * *

وشر أعداء تفوقك الأخلاقي ، اجترار الندم ، وإدمان اللوم .

فلا تُنفق قواك البنَّاءة في إدمان الندم على ما تورطت فيه من خطأ . .

لا تظن أنك إذا زللت . أو حتى واقعت خطأ فادحًا ، أنك انتهيت . . فهيهات لمثلك أن ينتهي . .

إن في داخلك من القوى النفسية المذخورة . ما لا يُؤْذِنُ بانتهاء أبدًا . ومعك من القدرة على إصلاح الخطأ ، والتفوق على الزلل ، ما لا ينبغي معه يأس أو ندامة .

إنك واحد من النوع الذي اتخذه الله خليفة . . النوع الذي جعله الله أستاذ هذا الكوكب ، ومهندسه ، ومُفَجِّر الحياة فيه . . ! !

من أجل هذا ، أَمَدَّكَ بقوى تحطم كل يأس . . وطاقات تجاوز كل عجز . .

والقدرة التي يحقق بها نوعك الإنساني هذه الانتصارات العلمية الباهرة . . معه مثلها أو أكثر منها ، ليحقق بها انتصارات أخلاقية أبعد منالا . وشأوا . .

أنت فرد . . اسمك أحمد ، أو عليّ . .

ولكن خصائص البشرية كلها – يا هذا الفرد . . تحتشد فيك بكل هَيْمَنَتِها وإعجازها . . ! !

ومن الكهوف والأقبية ، طالما انبعث أفراد مثلك أو أسوأ منك ظروفًا . . كانوا خطائين ، فتحولوا إلى قديسين . . أو كانوا هَمَلاً ، فتحولوا إلى قادة . . ! !

حَرك إرادة الفضيلة فيك ، لا أكثر . .

والوِ زِمام نفسك عن الدنايا ، لا أقل . .

ودَع العواقب بعد هذا تُقْبِل ، فلن تكون إلا تفوقًا ، وخيرًا ، ونهوضًا . . ! ! !

ولا تجلد نفسك بسياط الندم قط ، ولا تعذب ضميرك باجترار اللوم أبدًا .

لكن استعرض في هدوء ، الظروف التي تُغريك بالخطأ الأخلاقي وناقشها ، ثم حاول أن تعرف بديلها من الظروف الأمثل والأفضل .

وافعل هذا ، في تهلل ، واطمئنان . وأناة .

إن الأرض لن ترحل من هنا . . وإن لك مع كل عُسْرٍ يُسرا ، ومع كل غد أملا . .

لا تدع قواك تتحطم تحت وطأة الشعور الضاري بالإثم وبالندم .

فإنك وأنت « حطام » لا تستطيع استرداد الأرض التي فقدتها . . لكنك وأنت « جميع » قادر على استردادها ، وامتلاك سواها . .

يقول : – « تولستوي » :

« مما يفزع المرء له أننا كالأطفال . نفكّ أجزاء الساعة ، ونجعل منها ألعوبة . ثم ندهش بعد هذا ؛ لأن الساعة لا تدور . . ! ! »

قال تولستوي هذه العبارة في معرض تأملاته الدينية ، وأنا أنصحك أن تجعلها ضياء تأملاتك الأخلاقية أيضًا . .

فنحن نصنع بأنفسنا هذا تماما ، حين نحطمها بالندم ، ونحلل تماسكها بالكبت الأعمى ، أو بالإفراط الأهوج ، ونبعثر قواها في اجترار الشعور بالخطيئة ، وبالهزيمة . . ثم ننتظر منها بعد هذا أن تعمل ، وتدور . . ! !

احتفظ بطمأنينة نفسك وثَباتِها ، وتَماسُكِ قواها . إذا أردت للساعة أن تدور .

* * *

إن مسئوليتك الأخلاقية تتمثل في تقديرك لوقع الخطأ وقدرتك على إصلاحه ، وإدراكك لقيمة الفضيلة وسعيك لإحرازها . .

أما موقفك من الخطأ ، تقديرًا له ، وقدرة عليه ، ففي السطور السالفة حظ من التبيان أحسبه كافيًا . .

أما الفضيلة ، فهي إذ تبدأ من الإدراك السديد لفلسفة الخطأ وحقيقته . فإنها تمضي بعد ذلك معتمدة على ذكاء التربية ، وذكاء الإرادة . .

لعل حكمة المسيح القائلة : « لن تدخلوا ملكوت الله حتى تُولَدوا من فوق » . .

لعلها كانت تشير – فيما تشير – إلى هذه الحقيقة الجلية ،

حقيقةِ أنَّ معظمنا تُصاغ حياتهم في الطفولة على غِرارٍ من التربية لم يختاروه . . وأن عليهم – كائنا ما كان هذا الغِرار – أن يعيدوا تربية أنفسهم وتكوينهم إذا كان التوفيق قد جانب تربيتهم الأولى ، وأن يُضاعِفوا من فرص التفوق لتلك التربية إذا كانت قد بدأت صحيحة سوية . .

فأنت الآن في سِنِّك الناضجة . مسئول عن ولادة جديدة لنفسك . . واعلم أن لله عبادا ، إذا أرادوا ، أراد . . ! ! !

فاحمل إرادتك ، وزودها بالذكاء . وحسن التقدير وامض في طريق الخير والفضيلة .

إنك حين تذهب لشراء ثوب لك أو جَورب ، تنتقي أجود الأصناف التي تسمح بها قدرتك الشرائية . .

فإذا ذهبت لتشتري لك حياة . . أفلا تختار أعظم وأبهى ما تسمح به قدرتك الإنسانية . .

ألا فاعلم أن قدرتك بعيدة الحدود جدا . .

واعلم أن الحياة ، لا تُشتَرى جاهزة ، وإنما تُنسج ، وتُصاغ ، وتُبنى ؛ ووسيلة هذا : الإرادة الذكية . . .

• وإرادة الفضيلة ، تعني المثابرة على الأعمال الفاضلة . .

إن حياتك الخلقية ، ليست أكثر من مجموعة من المواقف السليمة حوّلَتها المثابرة إلى عادة ، فأصبحت خلقا وسلوكا . . ! !

اذكر هذا جيدًا . .

الأخلاق الكريمة ، هي مجموعة من المواقف السليمة ، يثابر عليها صاحبها حتى تصير عادة . .

فاشحَذْ اهتمامك باختيار هذه المواقف ، والْتزِمْها . .

مِن أشدها ضآلة . . إلى أنفسها قيمة . .

من الطريقة التي تُعامل بها خادمك . . إلى الأسلوب الذي تحترم به وتعامل رئيس دولتك . .

من الطريقة التي تشتري بها « قلم رصاص » من بائع متجول . إلى الطريقة التي تهيئ بها نفسك لنيل منصب كبير . .

موقفك من نفسك في خلوتك . .

موقفك من أسرتك . .

موقفك من زملائك في العمل ، وأصدقائك في الحياة . .

موقفك ممن تعرف . . وممن لا تعرف . .

موقفك من الذين تحب . . ومن الذين تَكْره . .

موقفك من المحسن إليك . ومن المسيئ . .

طريقتك حين تبتسم ، وحين تضحك ، وحين تَعْبس . .

حين تتحدث ، وحين تصمت ، وحين تصغي . .
حين تعطي ، وحين تأخذ . .
حين تمشي ، وحين تقعد . .
حين ترضى ، وحين تغضب . .
موقفك من مَظالمَ تقدرعلى دفعها ، ومن ظالم ، تقدرعلى زجره . .
موقفك من آلام الناس ، ومن آمالهم . .
من فضائلهم . . ومن أخطائهم . .
موقفك من القضايا العامة ، والواجبات العامة . .

كل هذه المواقف تشكل حياتك الأخلاقية ، بل وحياتك كلها . . ! !

* * *

واذكر ، وأنت تتخذ هذه المواقف ، لتنسج منها فضائلك .

اذكر ، وتَوخَّ ، واجعل غرض سعيك الأخلاقي ، أن تكون فاضلا . . لا « محترف » فضيلة . . ! !

هناك فارق بين إنسان « أمين » وإنسان « يتحلَّى » بفضيلة الأمانة . .

الأول : حقق نموه النفسي كل أغراضه الفاضلة . .

والثاني : لا يزال يحاول . .

وكلا الإثنين خير لا ريب ، ولكن الأول أكثر استقرارًا على صراط الفضيلة . .

إذا قلبت النظر فيما حولك . . ستجد ناسًا كانوا صادقين أو شجعانًا ، أو أمناء . .

وذات يوم ظهرت عليهم الأعراض المضادة . . فإذا الصادق كاذب ، وإذا الشجاع جبان . . وإذا الأمين خائن . . ! ! !

ماذا حدث . . ؟

إنهم لم يكونوا يراءون الناس بفضائلهم الأولى . . بل كانوا صادقين في الأخذ بها . . فماذا جرى . . ؟ ؟

لماذا هجروا فضائلهم ، وتحولوا عنها . . !

السبب : أنهم لم يضعوا في اعتبارهم أن يكونوا فضلاء . .

بل جعلوا غاية سعيهم أن يفعلوا الفضائل . .

وشتَّان بين من يكرس جُهده الخلقي ليكون فاضلا . . ومن يكتفي بأن يتحلى بالفضائل بعض الوقت . .

إن فعل الفضائل درجة من درجات النمو الخلقي . . لكنه ليس هو النمو كله .

فعل الفضائل . بمثابة طلاء البناء ، لكن ليس هو البناء

ذاته . إن الذي ينقلك من محترف فضيلة ، إلى فاضل فعلا .

هي المثابرة الذكية .

وهو أن تضع في اعتبارك أنك تنشئ من نفسك وطنًا صالحًا لمعالي الأمور. وفضائل الخلق . . ! ! !

وهو أن تبلغ المستوى الذي لا تكون فيه فاضلا ، لأنك تفعل الفضائل . . بل تفعل الفضائل ؛ لأنك فاضل . . ! !

الإنسان الفاضل ، إنسان اجتاز دور المحاولة ، واستقر في مقام الرسوخ . .

وفضائله ، لم تعد أشياء منفصلة عنه – يرتديها متى شاء ، ويخلعها متى شاء . . لأنه لا يمارس الفضيلة ممارسة هواة . .

إنما « الفضيلة » حياته . . وحياته ، صلاته . .

ومن ثم ، لا يستطيع هو ، ولا تستطيع قوة مهما عظمت ، أن تحول بينه وبين فضائله .

لن تستطيع كل مغريات الأرض ، أن تقلب الأمين خائناً . ولا الصادق كاذبا . . إذا كان قد جاوز مرحلة اكتساب الفضيلة إلى مرحلة الإنسان الفاضل فعلا . .

فاجعل غاية مساعيك الخلقية أن تكون « فاضلا » تسير

على صراط الفضيلة بقدمين ثابتتين ، فذلك هو ضمانك الوحيد ضد النَّكْسة . . كما أنه « جواز مرورك » الوحيد إلى سماوات العظمة . . ! !

ولا تَخْلِط بين هذا السمو، وبين الخطأ . .

أعني لا تظن أنك لن تبلغ منزلة « الإنسان الفاضل » كما صورناها إلا إذا برئت من كل خطأ .

لا . . .

ذلك هو « الملاك الفاضل » الذي لا يخطئ ، لأنه لا يقدر على الخطأ .

ونحن نتحدث عن « الإنسان » لا على « الملاك » . .

فاذكر أنك قادر على بلوغ قمة الفضيلة هذه ، مع وجود بعض الأخطاء الخلقية الهينة التي يفصدها سلوكك الرفيع بين الحين ، والحين .

* * *

إن العلامة الصحيحة المميزة للمستوى العالي للفضيلة ، لا تتمثل إذن في العِصْمَة من الزلل . .

إنما تتمثل في مساعدة نفسك ، لتصير إنسانًا فاضلاً . .

ومساعدة الآخرين ليكونوا فضلاء . .

فآية مجاوزتك المستويات العادية للفضيلة .

آية تفوقك ، وبلوغك درجة « الإنسان الفاضل » هي أن تساعد الآخرين على السير في ذات الطريق . . هي أن تشارك في إيجاد الظروف التي تيسر للآخرين أن يكونوا مثلك . .

وهذا يقتضيك ألا تسارع إلى إدانتهم . .

يقتضيك ألاّ تَزْهُو عليهم بفضائلك أو تَثْنِيَ عِطْفَكَ عنهم لأخطائهم .

يقتضيك ، أن تسير معهم وفَق الحكمة القائلة . . « من عرف كثيرًا ؛ غَفَرَ كثيرا » . . .

يقتضيك أن يكون حديثك عن الناس ، وإليهم . بلسان دافئ .

لا تشغل نَفسك بتعقب أخطائهم ، لأنك مشغول بتهيئة الأسباب التي تجعلهم يتقدمون ؛ ويتفوقون .

وفي نفس الوقت ، لا تخدعهم عن أنفسهم ؛ ولا تجاملهم في أخطائهم ، ولا تسكت عما يلحقونه بأنفسهم من سوء . .

بل تقول لهم الكلمة الطيبة التي ينتظرونها لتقوم اعوجاجهم . .

تقولها في حنان ، وحرص ، وبر ، حتى تبلغ من أنفسهم مكمن العلة فتزيلها . ومفتاح التفوُّق فتديره . . .

* * *

ولا تطلب على الفضيلة أجرا . .

إذا كنت تبني حياتك بناء أخلاقيا . فاذكر دائما أن الفضيلة غاية لا وسيلة . .

واذكر أنك تجاهد في سبيل امتلاكها ، لا لتقايِضَ عليها بشيْ أثمن منها . . ولا لتكسب بها بين الناس شهرة أو مالا . .

ولكن لتربح حياتك نفسها . .

اذكر أنه ليس في حياة الناس كلها ما يمكن أن يكون ثمنًا للفضيلة ، سوى الفضيلة ذاتها . .

إننا نُحلي الأشياء بالسكَّر . . ولكن بم نحلي « السكَّر » نفسه ؟ ؟

لا بشيْ . . إن السكر حَلاَوِيٌّ نفسِه . . ! ! !

الفضيلة كذلك ، مَثُوبة نفسها . .

وحسبك جزاء عليها ، توفيقك إليها . . ! !

هناك حكمة جزيلة تقول :

« أكثر الناس جهلا بالخير ، أعلاهم صوتًا في طلب الأجر عليه » . .

فإذا فعلت الفضيلة ، ابتغاء شيْ سواها ، خَسِرْتَها . .

وإذا فعلتها ابتغاء ذاتها ربحتها . .

على أن ثواب الفضيلة الذي ترجوه من الناس ، مُدرِكُكَ لا محالة ،

وحتى إذا قسم لك أن تكون فاضلا بين قوم يجحدون الخير ، ويسخرون من كل سمو يُعجزهم نَواله . فسيكون هذا الجحود منطويا على أعظم مثوبة . .

لأن معناه ، أنك ضياء رفعه الله وسط الظلمة . وقدوة هيأها الله للمتخلِّفين . . . ! ! !

إن الفضيلة ربح لا يكتنفه خسران أبدًا فامض إليها سعيدا . .

• لا تَضِقْ بالخطأ . . واجتهد أن يكون خطؤك نظيفا . .

• إذا لم تستطع إصلاح كل أخطائك فإنك تستطيع إصلاح بعضها . .

فابدأ بإصلاح ما تستطيع .

• لا تضطهد غرائزك ، ولا تكْبت حاجاتِ نفسك .

بل طعِّمها بنوازع الاستقامة والخير ، ودَعها تعمل .

* اكتشف ما مَعَك من فضائل ، وركِّز عليها . وتعهَّد ضعيفها حتى ينمو ، واعلم أن كل فضيلة تنميها وتكتسبها ، إنما تشكل حلقة باهرة في سلسلة انتصاراتك على ضعفك .

* تجنب الطفرة ، ودع حياتك الأخـلاقية تكتشف نفسها ، وتحقق ذاتها خلال نمو طبيعي . . ولا تتطرف في طلب الفضيلة تطرفًا يردك – مكرها – إلى الاتجاه المضاد . .

* ابحث عن المواقف السليمة دائما ، والتزمها . .

* اجعل غرضك الأخلاقي أن تكون « فاضلا » ، لا « محترف » فضيلة . .

* تصرّف دائمًا ، كما لو كان سلوكك ، سيصير طريقًا عامًا ، لمن معك ، وللأجيال القادمة بعدك . .

* لا تنتظر على الفضيلة مَثوبة خيرًا من الفضيلة نفسها .

والآن . . أَسألُ الله لي ولك توفيقًا وسدادًا . . .

وإلى الوصية الرابعة . .

الوَصِيَّة الرابعَة

إحمِل رُوحَ الرُّوَّاد

وَابحَث عَن الدُّرُوبِ غَيرِ المَطرُوقة..

وَاجعَل مَناطَ سَعيِك:

"مَالَم يَفعَلهُ مِن قَبلُ أحَد"..!!

إذا أخذت بالوصية الأولى ، فصرت محبا ودودا . .

وعملت بالثانية ، فنحيت الخوف ، ونهضت شجاعا قويا .

وظفرت بالثالثة ، فعشت عيشة فاضلة .

فأنت الآن مهيأ لجلائل الأمور ، فاستقبلها بعزم .

« إن العظائم كُفُؤها العظماء » . . !

وإليك إذن الوصية الرابعة :

* أن تحمل رُوح الرواد
* وتبحث عن الدروب التي لم تُطْرَق بعد . .
* وتُضيفَ إلى الحياة . . ما لم يفعله من قبلك أحد . . ! ! !

هناك حديث مُضيْ قاله الرسول : « إن الله يحب مَعَاليَ الأمور . ويكره سَفَاسِفَها » . . .

ومَعَالي الأمور . غاية كل إنسان ذكي القلب ، مستبسل العزم .

وأنت ، كلما نمت شخصيتك ، وربَتْ همتك ، واستقامت غايتك ، ازداد هُيامك بالعظائم ، مهما تكتنفها المشاق ،

وعانَقَتْ روحك الجلائل ، مهما تتطلب من تبعات .

إن رواد المجهول ، المولَعِين دوما بالسير في الدروب غير المطروقة ، المهيأة كواهلهم لحمل الأعباء الجليلة الثقيلة . .

هؤلاء ، هم الذين يخرجون لنا كنوز الحياة وأسرارها ؛ لأن الحياة لا تفض أسرارها لهزيل ، ولا لجبان . .

ستسألني قائلا : –

لو أن كل الناس أخذوا بهذه الوصاة ، لصاروا جميعًا روادا . . وما هكذا سنة الحياة . .

ألا ، فلتعلم أن هذه هي سنة الحياة ، وإرادتها . . وأن جميع الناس خلقوا ليكونوا روادا . .

كل فرد ، واجبه أن يكون رائدا . ؛

لأن كل فرد جيءَ به إلى الحياة ، ملزم أن يضيف إليها جديدًا . .

وهذا هو معنى الرِّيادة . . وهذه هي سِمَةُ الرواد . .

الفلاح الذي ينشئ على سطح الأرض كوخا ، ويودع تربة الحقل عرقه المتصبب خلال أربعين أو خمسين عامًا ، ثم يمضي . . رائد أضاف إلى الحياة جديدًا . .

والعامل الذي يقف خلف «ماكينة» تخرج من الخيوط ثِيابًا ، أو منْ الورق الأبيض كتابا ، أو من الفحم طاقات تدفع عجلة التقدم دورة . . رائد ، أضاف إلى الحياة جديدًا . .

والمعلِّم ، الذي تلقَّى أطفالا – لهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم عقول لا يفقهون بها . ثم أرهفَ السمع ، وفتح العين ، وثقَّف العقل ، وصنع من الطفل طبيبا ، أو مهندسًا ، أو معلمًا جديدًا . . هو أيضا رائد : أضاف إلى الحياة جديدًا . .

ليس نوع العمل إذن ، ولا حجمه ، هما اللذين يمنحان صفة الرائد . بل الروح المتبدي في العمل ، وطبيعة الجهد المبذول لإنجازه .

قال الرسول يعلمنا : « إن الله يحب إذا عمل أُحدكم عملا أن يُتْقِنَهُ » .

فإتقانك العمل – أي عمل – يمنحك روح الرائد ومكانته . لأنك وأنت تعمل ، ثم وأنت تضع في عملك كل قلبك وجهدك ونبوغك – إنما تمنح طاقة الحياة مزيدا . . وتضيف إليها جديدا .

أنت رائد ، ما دمت تعمل ، مُفْرِغًا وُسْعَك فيما تعمل . . وكل عضلة تتحرك في دماغك وهو يفكر . . وفي ساعدك وهو

يعمل – إنما تدفع دورة الدم في أوردة المصير الإنساني ، دَفْعَةً أنت صاحبها . .

إنك عازف في أوركسترا البشرية . وكما أنَّ أدنى نَشاز في عزفك ، يفسد اللحن ، ويَذهب باتِّساقِه . فكذلك كل انسجام منك . يمنح اللحن إبداعًا وفنًّا . . ! !

على أنك لست « عازفًا » فحسب . . بل أنت خالق وفنان أيضا . ذلك لأن عملك ، هو عملك . . يحمل طابعك ، وروحك ، ونبوغك . . وهو بهذا يعتبر دَخْلاً جديدًا في رصيد الحياة . .

فإذا تفوقت به ، ومنحته جهدًا غير عادي – تحول في يدك إلى عمل غير عادي . . إلى معجزة تبهر الألباب . . ! !

ولست مُطالبًا – لكي تكون رائدًا . . – أن تمنح الإبداع النهائي لعملك . . بل الإبداع الميسور لا غير . .

إن الإبداع النهائي ليس عمل فرد ، ولا جيل ، ولا عصر . . بل هو عمل الإنسانية كلها :

والإبداع الميسور لك – هو حلقة في سلسلة الإبداع النهائي الذي هو عمل كل البشر في كل العصور . .

وحين يصير عملك « علامة ضوئية » تتركها للناس على طريق لم يكونوا يعرفونها ، فقد فعلت فعل الرواد العظام .

انظر . .

إن « ماركوني » لم يصنع لنا كل ما ترتب على كشفه الأول من مخترعات . . ومع هذا فسيظل مكانه في التاريخ ، وفي قلوب الناس كما لو كان صانعًا بيديه كل ما حدث وما سيحدث من معجزات هَدى إليها كشفُه الأول وخواطرُه الأولى . . ! !

ولكي تمنح عملك الإبداع الجديد الذي تجعله حلقة جديدة في سلسلة تطورنا – عليك أن تتقنه . .

إن إتقان العمل – أي عمل – يعكس كل ما ينطوي عليه صاحبه من خلق ، واستعداد ، ونُضْج . . ! !

وهذا « الإسكاف » الذي يَخِيْط غرزته ، وكأنه في عبادة . . ويدق مسمارًا في عناية مَنْ يصنع طائرة . . تبتهج الحياة به وبعمله – أكثر من ابتهاجها بهذا الذي يأتي أعمالاً كِبارًا بيد مرتعشة ، وقلب زائغ ، واهتمام فاتر .

وإتقان العمل فن عظيم . وهو لا يتمثل في معرفتك ، كيف تعمل فحسب . . بل وفي ، متى تبدأ ؛ ومتى تكُفُّ . . ؟

سئل مثّال إغريقي كبير : كيف سبقت معلمك ، وتفوقت عليه ؟

فأجاب : كان معلمي عظيما ؛ لا ريب . . بيد أنه لم يكن يعرف متى يجب أن يرفع يده عن التمثال . . ! !

فاللحظة التي ينبغي فيها أن تبدأ . . واللحظة التي ينبغي فيها أن تَكُفَّ . . لهما أثر بالغ في إتقان عملك . .

ولكي تتقن عملك – لا بد من أن تحبه .

وأنت ستحبه قطعًا ، إذا اخترت مادَّته ونوعه . .

فاختر عملك إذا استطعت لهذا سبيلاً . .

اختر ما تعلم إن إمكاناتِك تؤهلك له – وتعطيك القدرة على التفوق فيه .

وإذا لم تستطع أن تختار عملك ، فأحبه حتما . .

إن حب العمل ضروري لإجادته . .

وإذا لم تستطع أن تعمل ما تحب ، فلْتحب ما تَعْمل . . ! !

إنك لا تدري . . لعل هذا العمل الذي فُرض عليك يكون نعمة كبرى لك . .

ولعل الأبواب المُوصَدة التي حالت بينك وبين عمل كنت تريده وتتمناه . . لعلها أُوصِدَتْ لتسلك سبيلا أخرى ينتظرك

عليها قَدَر عظيم ، وغَدٌ بهيج . . ! !

أحْبِبْ عملك ، لأن عملك هو في النهاية حياتك . .

واعلم أنه ليس في الدنيا ؛ عمل حقير ؛ وعمل عظيم إلا بقدر وبطبيعة ما يبذل في كل منهما من جهود . .

وكل عمل صغير تتفوق فيه . يتحول من فَوْرِه إلى عمل عظيم . .

وكل عمل قديم تبتكر فيه ، يتحول بدوره إلى عمل جديد . .

إذا كنت زارعًا ؛ أو صانعًا ؛ أو طالبًا ؛ أو استاذًا ؛ أو طبيبًا أو مهندسًا ؛ فاعلم أنك تُمسك بِنَواصِي عملك كله . . وأن قدْرا كافيا من الولاء له والجهد فيه ؛ كفيل بأن يخرج لك خَبْئَهُ ، ويجلي عَظَمته ! !

وهنا ، أُقدم إليك في خشوع وحفاوة رجلا تمنحنا حياته وسلوكه كعاملٍ في دنيا الناس – كل ما يُعْوِزُنا من هِداية وثقة . .

ذلكم : هو « وشنطن كارفر » . .

زنجي أمريكي . . نشأ عبدًا رقيقًا . . يجمع لسيده الأعشاب ويتعهد الحديقة . .

سأل سيده يوما ، وهو طفل صغير :

« لماذا يبدو العنب مختلفًا ألوانه . . ؟ »

فأجابه سيده : الحق يا كارفر أني لا أدري . .

فعاد يسأل : هل الله يدري . . ؟ ؟

أجابه سيده : نعم ، فهو بكل شيءٍ عليم . .

أجاب الطفل جادًا : سأذهب الآن وأسأله . .

لقد رأى « كارفر » ، وهو غلام ، أن الأقدار اختارت له هذا العمل – جمع الأعشاب ، والنباتات ، ونفايات الأرض ، . فأودَع العمل قلبه ، وأكبَّ عليه بكل روحه ، ولما رأى من تمام إتقانه أن يتعلم ، عكَف على تثقيف نفسه . . ! !

كان يتأمل الأشياء التي لا يُلقي الناس لها بالا . . ريش الدجاج المنتوف . . الطحالب الناعمة . . الديدان والسحالى . .

وكلما كبر ، ازداد هيامًا بعمله . .

وإنه لَيقبل على عشب مُلْقًى . . أو نباتة مهملة ، فينحني في خشوع ويقبّلها ، ويتأملها . .

وذات يوم رآه صديق له على هذه الحال فسأله :

– ماذا تفعل يا كارفر؟ هل أصابك مكروه . . ؟

فأجابه : لا – إني أُصْغي إليها . . ! !

– تصغي إليها . ؟ أهي تتحدث . ؟

– إن الله يتحدث إليَّ من خِلالها . .

هذا رجل اختارت له ظروف الحياة عملا عاديا – بل أقل من عادي . . جمع العشب ، وتشذيب الشجر.

لكن حين احترمه ، وأخلص له ، وأودعه فؤاده الذكي وروحه الغلاّب ، ارتفع به إلى مستوى الأعمال المتناهية في العظمة والجلال . . ! !

دفعه شغفه بعمله إلى أن يعرف كل شيْ يتصل به ؛ فتعلم ، ودخل الجامعة ، وحصل على « بكالوريوس العلوم » . . ! !

وفيما بعد ، تربَّع على عرش عظيم من صنع يديه ، وأخرج للناس من الفول السوداني وحده ثلثمائة مركب كيمائي . . ! ! !

ومن « البطاطا » وحدها ، مائة وسبعين مركبًا من بينها العقاقير والأغذية ، والمطاط الصناعي ، وحبر الطباعة ، والبودرة ؛ والزبد ، والبن ، والصابون ، والمطاط ؛ والدقيق . .

وسَعتْ إليه جميع الدول الكبرى ؛ قبيل الحرب العالمية الثانية لِينزل ضيفًا عليها يمنحها من خبرته وعبقريته . . ومنحته أمريكا أرفع الأوسمة .

ويوم مات في ٥ يناير ١٩٤٣ ، كتب « روزفلت » يقول :

– إني لأعتبر نفسي موفقًا أعظم التوفيق ، إذ اجتمعتُ به يومًا ، وتحدثتُ إليه . إن الإنسانية بأسرها مدينة لمكتشفاته التي كانت مَثَارَ الدهشة . ومَدْعَاةَ العجَب » . . ! ! !

أرأيت ؟ ؟

هذا إنسان لم يزِد عن كونه ، رقيقًا . .

وهذا عمل – ليس سوى جمع عشب ، وكنس طريق ؛ وتشذيب شجر . . ! !

ومع هذا ؛ فلا النشأة ولا العمل . . على ما فيهما من ضآلة ومَسْكَنة . . . بقيا في نفس المستوى الذي تسلمهما عنده « كارفر » . . بل نفخ فيهما من روحِهِ وصِدقه ، فإذا الزنجي الرقيق أستاذًا من أساتذة البشرية . . ! !

وإذا جمع العشب ، عبقرية تتجلى في اكتشافات مذهلة ، ومخترعات جليلة نافعة . . ! !

أي سِرّ وراء هذا . . ؟ ؟

إنه سر واحد . .

إنها روح الرواد . . حملها الفتى ، وبث منها في عمله

فكان كل هذا الإعجاز . . ! !

كان «كارفر» يتغنى دائما بهذه الحكمة :

- «إن الأفذاذ الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مُصَوَّر . . .

«الذين تتلهف فيهم الأرواح على أداء الأفعال الجسام . .
هم الذين ينيرون السبيل أمام الأكثرين» ! ! !

* * *

الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مصور . . ؟ ؟
إن «كارفر» يضع أيدينا على سر العظمة . .

السير بلا خريطة . . نبذ التقليد والتبعية : السعي في العمل وراء الجديد الذي لم يكتشفه من قبل أحد . . فَلِكَيْ تحمل روح الرواد ، ابتكر ، ولا تقلد . .

حرك عقلك في جميع اتجاهاته الواسعة ، ولا تُولَعْ بالسير وراء الآخرين .

انتفع بتجاربهم . . ثم احمل تجربتك أنت ؛ وشُقَّ لنفسك طريقا . .

إن طرق الله في الحياة لا حصر لها ، ولا مُنتهى . . ولقد

خُلِقنا كثيرين . ولم نُخلق فردًا واحدًا . . وأُعطِينا عقولا كثيرة ؛ ومَشيئاتٍ كثيرة . . لا عقلا واحدًا ، ولا مشيئة واحدة .

وذلك ؛ ليكشف كل منا الجزء المنوط به من مجهول الحياة ، والعمل .

والذي يكتفي بتقليد غيره ، إنسان انسحب من الحياة ؛ وألغى دوره العظيم . .

وأنت حين تسير في الشوارع المعبدة الممهدة ، لا تأتي أمرًا مذكورًا . .

أما حين تبحث عن درب غير مطروق . . وتكتشفه ، وتنادي الناس إليه ، وتصله بطرائق الحياة الكبرى الواسعة فأنت إذن الرائد الذي يبتهج بك قلب الحياة . .

فمهما يكن عملك ، لا تقف فيه حيث وقف غيرك . . بل ابدأ من حيث انتهى سلفك . .

لا تبذل فيه جُهد الهَمَل ، بل ابذل جهد الرواد . .
كن أحد الذين ينيرون السبيل أمام الأكثرين .

لو اكتفى « جورج وشنطن كارفر » من الفول السوداني ، ومن البطاطا بأكلهما ، كما أفعل أنا ؛ وأنت . . أوحتى لو اكتفى

بمجرد الدراسة ، وبمجرد الحصول على الإجازات العلمية ، لظل دوره عاديًا .

لكنه صمم على أن يحقق وجوده ، ويضيف للحياة جديدًا .

صمَّمَ على أن يسير سيرة رائد – لا سيرة تابع . .

ويحيا حياة عملاق . لا حياة هزيل . .

فانظر عملك مليا ، وركز على بواطنه وعيك ، وعزمك ، فستلقاه مليئًا بأسرار كبرى .

وحين يلمح منك اهتماما وتقديسا ، سيسارع إليه بخبئه وبأسراره.

إن في يدك أن تفعل ما لم يفعله من قبل أحد ، إذا بذلت في عملك جهد الصادقين .

ذلك أن كل خطوة تخطوها في الحياة ، هي خطوتك انت . .

وكل حركة لك ، هي حركتك أنت ، والحياة تنتظرك لتفعلها : فإذا فعلتها بقوة ، وفطنة ، وتجديد ، فقد فعلت شيئًا جديدًا ، لم يفعله من قبلك أحد .

فإذا كنت تحمل قلمًا ، وتكتب للناس ، فلا تجعل همك تسويد الصفحات ، وترديد ما قاله قبلك كثيرون . بل ابحث عن الجديد ، ولو في الفكرة المطروقة – ثم قدمه لقرائك . .

وإذا كنت عالما ، أو مخترعًا ، فلا تجعل همك محاكاة الخلاقين . والسطو على جهود العاملين – بل خذ مكانك معهم – خلاقًا جديدًا .

إن أسرار الحياة لا تنتهي . . ومَن يقْرع الباب ، يُفتح له . .

إذا كنت صانعًا . فلا تكن آلة من حديد ، أمام آلة من حديد . . ! !

بل ميز نفسك عنها باستعمال عقلك . . وضع عينيك على كل شرارة تبرق منها فإنها تضيءُ لك سرا هناك يناديك ويُلِحُّ عليك .

وإذا كنت طالبًا ، فلا تذاكر لتنجح ، بل ذاكر لتكتشف عقلك .

لا تبحث بين السطور التي تقرؤها عن درجات النجاح . . بل ابحث عن سلوك الحقيقة العلمية ، لتستطيع فيما بعد أن تهتدي إليها ، وتتلقى عنها . .

لا تجعل غايتك أن تظفر بشهادة تُدَثِّر بها عُرْيَكَ العقلي . . أو تأكل بها عيشًا . .

بل اجعل غرضك أن تحصل على « المفتاح » الذي يَفضّ به أكبر قدر ممكن من أبواب المستقبل لنفسك ، وللناس جميعًا . .

ومن يحمل روح الرواد هذه ، ويمارس عمله وواجبه بروح إنسان مبدع ، ورائد مقدام ، فإن قوى الحياة تُسخَّر لأمره ، وتسارع إلى نجدته ، وتظل عظائم الامور مَطْوِيَّاتٍ بيمينه الظافرة . . ! !

واعلم أن الله لم يحرم أحدا من روح الرواد .

وإنما الناس ينامون عما معهم من ثراء روحي عظيم ، ويسلمونه للضياع . .

إن معظم الذين فكروا ، وعملوا ؛ واخترعوا – من رواد الإنسانية ؛ لم يكن في حسابهم وهم يؤدون واجباتهم، أنهم يصنعون من أنفسهم روادا ؛ ومن أعمالهم أمجادا . .

لقد كانوا يعملون فحسب ؛ ويتقنون أعمالهم وواجباتهم لا غير . . ثم كتب لهم خلود لم يسعوا إليه ؛ وأخذوا مكانهم في الصف الأول من غير حرص ولا صلَف . .

وتحت إهاب كل منا رائد مكنون . .

أيقِظ الرائد الذي تحت ضلوعك ؛ يصنع لك المعجزات .

إن أهم حوافز الحياة ، كامن في عزيمة الإنسان . .

والعزيمة موهبة لم يُحرمها أحد . .

يتفاوت الناس في ثرائهم ؛ وفي أشياء كثيرة من مظاهر

العيش والحياة . .

ولكنهم جميعًا سواء في روح الله الكامن داخلهم . . .

وسَواء في العزيمة القادرة على بلوغ ما يريدون . .

هناك - لا غير - ناس يستعملونها . . وناس يهملونها ، ويتركونها للصدأ والبوار . .

انظر . .

إن أكثر الذين فجَّروا طاقات الحياة ؛ ودفعوا قافلة التقدم - كانوا إما فقراء ؛ أو مرضى ؛ أو ذوي تعاسة في حياتهم . .

فبأي قوة خَلَقوا ؛ وحَلَّقوا . . ؟ ؟

إنه ؛ هذا الذي لم يحرم الله منه أحدًا . . إنه الحافز الروحي الفذ ؛ الذي تتألق مظاهره ، وإن خَفِيَ - إلى حد كبير - كُنْهُه . .

إنه هو الذي جعل من « محمد » اليتيم ، أبا للبشرية كلها . .

ومن « المسيح » المضطهد ، بهجة العالم وسلامه . .

ونقل « عمر بن الخطاب » من فتى يرعى شُوَيْهَاتِ خالاتِه نظير حَفنة من التمر - إلى أمير للمؤمنين ، يرفع لواء العدل والتوحيد فوق أنقاض كسرى وقيصر . . ! ! !

وجعل من « إبرهام لنكولن » الصبي الحطَّاب ، رائدا من

رواد الإنسانية الحديثة ، والتاريخ الحديث . . ! !

وصنع من « كارفر » ما سمعت . .

ويصنع من كل إنسان مثل ذلك ، إذا فتح بصيرته على مركز القُوى ، وحرك بيدٍ قوية مفتاحَه . . .

إنه - كما قيل - من قبل : « لا مستحيل على القلب الشجاع » . . .

والعزيمة تتطلب مثابرة لا تكلّ ، وصبرا لا يملّ . .

والذين يملكون أزِمَّة الصبر والمثابرة يتهيأون لكل عمل عظيم .

عندما كانت تضيق حلقة الاضطهاد حول رسل الله ، كان الأمر الذي يُنزَّل عليهم :

- « اصبروا » . . .

- « لا تيأسوا من روح الله » . .

فاصبر على أداء واجبك ، وثابر على تجويد عملك ، ولا تيأس أبدًا . .

اجعل شعارك « غدًا تغرد العصافير » . .

فإذا غلبك اليأس ، فقل : « بعد غد ، تغرد العصافير » . . ! !

احفظ عليك هدوءك ، وإصرارك ، ولا تيأس . .

إذا اقتلعَتِ الريح خيمتك ، فاعلم أن القدر يدعوك لتبني مكانها قصرًا . .

وإذا انفجرت البراكين حولك فقل : إن القدر يحرث لى الأرض ، لأملأها غِراسًا وبِذرًا . . ! !

« إن يد الله تخفُّ بالنجدة لكل مثابر ، دءوب »

هكذا قال الحكيم ؛ وإنه لصادق . .

* * *

لا تَحْقِرْ عملك أيا كان نوعه . .

ولا تستهن بواجبك . .

واعلم أنهُ خير لك أن تكون « الأول » في عمل صغير ، من أن تكون « الأخير » في عمل كبير . .

والأولوية التي تريدها طبعًا هي أولوية التفوق الحقيقي المستمد من خُلقك ومثابرتك وذكائك . .

على أن الأمر – كما ذكرنا من قبل – أنَّه ليس هناك عمل صغير أبدًا ، إذا كان الجهد المبذول فيه كبيرًا ، ونبيلا .

دَعْني أقص عليك هذا المثل الطريف . . .

كان في حي « الحسين » بالقاهرة ، رجل عظيم الحِذْق في صنع « الطعمية » . .

رجل ، لا بد أنه نشأ كما ينشأ أترابه . . صبيا يشتغل بهذه الحرفة لكنه ليس ككل صبي . . بل مفتوح العين ، مُرهَف الحس ، متفانيا في معرفة عمله وإتقانه . .

وكبر ، وصار صاحب عمله ، وسيد حرفته . .

كان الناس يقصدونه من كل مكان . .

كان الوزراء ، والكبراء . . يسعون إلى حانوته الصغير ، أو يرسلون من يحمل إليهم من عنده ما يشتهون . . ! !

أليس طهو الطعمية ، وبيعها ، من الحرف الدنيا في بلادنا . .؟

ومع هذا ، فقد جعل هذا الرجل من نفسه ملكا متوجا اسمه « ملك الطعمية » . .

اجل ، هكذا كان لقبه بين الناس . .

فَبأي حق ، أخذ الملك ، ولَبِس التاج . . ؟ ؟

إنه حق التفوق . .

كان « الأول » في عمله ، على الرغم من مستوى هذا العمل . .

فصار واحدًا من « الأوائل » في قومه ومجتمعه . . ! !

فاجعل همك أن تكون « الأول » في عملك . . تسارع إليك كل فرص الخير ، والفوز ، والتوفيق . .

وهي كما قلت لك « أولَويةُ » جدارةٍ وبذلٍ . . لا أولوية ، ادعاء ، واستعلاء . . .

* * *

وإذا أردت أن تكون رائدًا ، فتخلَّق بأخلاق الرواد . .

واعلم أن الرِّيادة بطولة . .

والبطولة الحقة ، لا تُعْنى بالشهرة ولا بالمجد ، وإنما تعنى بالعظمة . .

افتح بصيرتك جيدًا على هذه الكلمات التي أكتبها لك بحروف كِبَار :

« دع المجد والشهرة للحمقى ، واذهب أنت بـــــــالعظمة »

والعظمة ، شيءٌ مختلف عن المجد ، بعيد من الشهرة . .

العظمة ، عمل من أجل العمل . .

أما المجد ، فعمل من أجلِ الزَّهْو ، كما أن الشهرة عمل من أجل الغرور . .

العظمة . خُلوص الشخصية من آفاتها ، وخلوص العمل

من بواعث النفعية والوصولية . .

العظمة رِفْعَةٌ ، تحقق نفسها بالترفُّع . .

والشهرة ، كثيرًا ما تحقق نفسها بالتهالُك . . ! !

والإنسان العظيم ، يسعى إليه المجد ، وتخدمه الشهرة .

أما طالب الشهرة والمجد ، فإنه يتحول إلى خادم ذليل لهما ، وإلى تراب تحت أقدامهما . . ! ! !

« والعظيم » لا يتهافت على الشهرة ، بل يهرب منها ، لأن في ضوضائها خطرًا على سكينة نفسه ، وتَبتُّل روحه ، وسيادة عقله . .

و« العظيم » واحة يتلمس الأحياء عندها راحتهم ، وقوة تُحقق بها الحياة كِيانها . .

و« العظيم » بسيط في مظهره واثقٌ بنفسه .

هو يعلم أن لديه كثيرًا مما يريده العالم . ويحتاجه الناس . .

وهو يقدم هذا الذي عنده في غير مَنٍّ ، وفي غير صلَف . .

هو :

يُعْطي ، ولا يسأل . .

يَمْنح ، ولا يأخذ . .

يُقبل ، ولا يُدبِر . .

• يُواجه ولا يهرب . .

يتفانى ، ولا يتردّد . .

إنه يخدم الناس ، لا طمعًا في مال . ولا في ثناء .

وهو يؤدي دوره في استبسال وغِبطة ، فإذا جاء النصر ، وخفقت راياته – انسحب في هدوء ، باحثًا عن واجب آخر يؤديه وبطولة أخرى يحققها . . ! ! !

لا يقفُ لحظة ، ليقول للناس : انظروني . . ! !

ولا يطالب لنفسه بامتيازات خاصة لقاء ما أدَّى ، وجزاءَ ما فعل . وهو مهما تعلُ مكانته . لا يفتأ يعيش . . « واحدًا » بين الجميع . ويرفض أن يعيش « سيدًا » فوق الجميع . . ! !

ذلك أن ثراء مواهبه وروحه . يمنحه دائمًا شِبَعًا وريًّا ، فلا يعود يرى في الأمجاد التي يتهافت عليها الصغار سوى فُتاتٍ لا تقع عليه عينٌ مشغولة بالمناعِم ، ولا تتشهاه نفس شبعانة بالطيبات . . ! !

والساعي إلى « العظمة » كبير – دائمًا – حتى إذا زلّت قدمه وغلبته العثرات . .

أما الساعي إلى الشهرة فصغير – غالبًا – ولو كان فوق رأسه تاج . . ! !

الإنسان العظيم كالمحيط . . هادئ قوي . . ! !
وكضوء الفجر . . مُبَشِّر وَنَدِيّ ! !
وكروح الربيع . . مُبهج وَثَرِيّ ! !

ألست أدعوك للخير إذن حين أقول لك : « دع المجد والشهرة للحمقى ، واذهب أنت بالعظمة . . ؟ ؟ »

أجل : فاجعل مَنَاطَ سعيِك في الحياة . .
أن تكون رائدًا . .
أن تكون نافعًا . .
أن تكون عظيمًا . .

* * *

إنك إذا تتبعت سِيَر الرواد الكبار الذين غيروا وجه الزمن ، وأحسنوا صَوْغَ المصير لَوجَدْتَهم بلا استثناءٍ أصحابَ عظمة ، لا طالبي مجد ، ولا مُتسوِّلي شهرة . .

ستجد كثيرين منهم إن لم يكونوا جميعًا . قد نأَوْا عن الأضواء والراحة . ورَضُوا العمل الصامت . وآثروه على الضجة الفارغة . .

وعلى الرغم من أنهم قضوا حياتهم ؟ عائشين فوق اليَمِّ ، بعيدين من المرافئ ، مواجهين المخاطر . فقد زهدوا في

الحرص على الإطراء ، ولم يسمحوا لتصفيق الإعجاب أن يُفسد عليهم تأملاتهم ، أو ينال من تواضعهم ، وتنازلوا عن حقهم في كل جزاء وشُكور . .

ذلك لأنهم أحبوا العظمة الصادقة وعشقوها ، وعرفوا ما تنطوي عليه من مثوبة تتضاءل دونها كل المثوبات ، فحملوا تبعتها ، وآثروا صحبتها . . ! !



الوَصيّة الخامسَة

لا تَعِشْ وَعَلى عَينيكَ عِصَابة ...

وَامْضِ بَصيرًا

في يَمينكَ «إلَى أينْ» ؟..

وفي يُسْراكَ «لِمَاذا» ؟..

أنت في الحياة حدَث جديد ، وطاقة جديدة . . .

ويوم وُجدتَ ، امتلأ في الحياة فراغ كان ينتظرك ، ولا يملؤه بعد وجودك أحد سواك . . .

وهذا يحدد واجبك تجاه الحق الذي للحياة عندك حين صرت واحدًا من أبنائها وجنودها . .

وقوانينُ الحياة بل قوانين الكون ، تقوم أول ما تقوم على الترابُط . .

إذا انزلقت الأرض عن مدارها حول الشمس جزءا من الثانية ، بادتْ في جزء من الثانية . . ! !

إذا تلوث هواء بغبار ذري كثيف ، هلك الذين ينشقونه من الأحياء . .

الكون كله ، عائلة واحدة . . .

والحياة الإنسانية ، قلب واحد . . .

ونحن – في الدنيا – رَكْبُ سفينة تَمخُر العُباب ، ويستطيع

أحدنا أن يغرقها بما فيها ، إذا سمح له الآخرون أن يثقبها بمسمار . . ! !

إنك – قطعًا – لا تود أن تكون ذلك الواحد . .

وتستنكر بشدة أن يُساءَ بك الظن ، ويدور في خلَدِ أحد أنك هو . .

ولكني أقول لك : إنك تثقب السفينة كل يوم ؛ وكل ساعة ؛ إذا أغمضتَ عما يجري حولك عينيك ، جاعلا شعار حياتك العاجزة « وأنا مالي » . . ! ! !

* * *

إن الحياة ترفض الإمَّعية . .

ولو كان عيش بعض الناس كَلاًّ على البعض الآخر مما تقبله الحياة ؛

إذن لاختصرت نفسها ، وتخففت من أعباء الكَمِّ فيها . .

هناك بيت من الشعر يقول :

قد هيَّأوك لأمرٍ لو فَطِنْتَ له   فاربأْ بنفسك أن ترعَى مع الهمل

هذا ليس خيالا ، بل حقيقة . .

وهذه الحكمة مُوجَّهة لك . .

فأنت شيءٌ كبير هائل . .

إن القُوَى التي تعمل في الشمس ، وتجعل منها شمسا . .
وتعمل في الذرة ، وتجعل منها هَوْلاً . . هي نفسها التي
تعمل فيك وتجعل منك أنت . . ! ! !

والحياة الإنسانية ، تتمثل فيك ، كما لو كنت الجنس
البشري كله . . من أجل هذا ، كانت مسئوليتك أبعد آمادًا
من حدود نفسك وتُخوم ذاتك . . .

ومنذ أضاءت الحياة فيك ، وصرتَ واحدًا من شموعها
الكثيرة ، وأنت بالنسبة إليها حدث هام بالغ الأهمية . . .

وإذا كنت « حوذيا » فسئوليتك عن الحياة ، لا تقل عن
مسئولية « المِلك » لأن حفاوة الحياة بالحوذيّ وبالملك سواء . . .

أليسَ لك مثل ما له عينان . . ، ولسان وشفتان ، وإرادة ،
وعمل . . ؟

إذن ، فلك دور في الحياة ينتظرك . . ومسئوليتك عن هذا
الدور تتساوى في التحليل النهائي لها ، مع مسئولية الملك عن
دوره . . ! !

ذلك أن الحياة لا تنمو بالأعمال الجهيرة وحدها . بل
هي تستمد نماءها من كل عمل . . بل إن الأعمال الكبيرة
نفسها ، ليست إلا المجموع الكليّ لأعمال صغيرة . .

فلا تَخَالَنَّ نفسك تحيا على الهامش . فليس للحياة هوامش . .

فافتح عينيك، ولا تعش وعليهما عصابة . . .

ولكي تكون قادرا على أداء دورك الحيّ . كن بصيرا بزمانك . .

إن الحياة اليوم خِصْمٌ كبير يتفجر بالحيلة وبالذكاء . .

فواجِه الخصم بعينين مفتوحتين . ومسئولية مبصرة .

لقد انتهت عصور الإذعان . والتلقّي . ولم يعد ناس اليوم صالحين للسير صُمًّا وعُميانا . . ؟

والذي يسير أعمى وسط الزحام . ستدوسه الأقدام وتطحنه العجلات . .

ضع قدميك على الصخر . . إذا أردت ألا تبتلعك الهوة الفاغِرة .

ابحث ، وناقش ، وتساءل . . واجعل ضمن تسابيحك المقدسة : إلى أين . . ؟ ولماذا . . ؟

دائمًا تساءل : كيف . . ؟ إلى أين . . ؟ لماذا . . ؟

واعلم أنه لن يضيق بهذا التساؤل سوى الباطل . . اما الحق فلا شيءَ يُثلج صدره مثل هذا ، التساؤل الذكي الدءوب . . ! !

من أجل هذا ، ولأن الله هو الحق المبين ، فقد حضَّ الناس على أن يتساءلوا ، وينظروا في ملكوت السماوات والأرض ، ويحاولوا معرفة كل شيء . . مِن : « كيف بَدأ الخلْق » إلى - « وأَنَّ إلى ربك المنتهَى » . . ! ! !

وأثابَهُم على هذا بوعد منه أن يكشف لهم من الأسرار ما يريدون كشفه ومعرفته :

« سأريكم آياتي ، فلا تستعجلون » . . ! !

إن كل تسليم مطلق ، نقص كبير من نفوذك ، وأذى يحيق بقضية الحياة كلها . .

والتصميم على أن تعرف ، جزء كبير من مسئوليتك ، كمواطن ، وكائن . .

فلا تضحِّ برأيك ، ولا تتلاشَ في غيرك . . ولا تكن إمعة تطفو فوق العباب . . بل ارفع رأسك عاليا بين الرءوس ؛ ورقبتك بين الرقاب . .

حاول أن تفضَّ بالسؤال مغَالِيقَ ما لا تعرف ؛ من آفاق الكون العليا - إلى سَيْرِ الحياة في شارعك ؛ أو في زقاقك . .

وكن من الذين يجيئون الدنيا مُزَوَّدِين بفضيلة الإصغاء ؛

وفضيلة التساؤل . .

ولا تقف أمام شيْ – ولا تُجْفِلْ عن استطلاع غيب . . عقائدك ، وأفكارك ، واتجاهات قومك وعصرك . .

كل هذا أخضِعْه للسؤال . . وطَلَبِ المعرفة ، وللنقد النزيه الأمين القوي . .

هناك حكمة جليلة . قالها « المسيح » حين داوى مريضاً يوم سبت ، فأراد خصومه أن يتخذوا من هذا العمل سبيلا للتشهير به والتأليب عليه ، إذ مارس العمل في يوم عطلة الرب ؛ كما يزعمون . .

هنالك قال لهم المسيح :

« إنما جُعِلَ السبت من أجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان من أجل السبت » . . ! !

أجَل . . إنما جعل السبت من أجل الإنسان . .

كل شئ هنا – وجد من أجل الإنسان . .

العقائد ، والأفكار ، والقوانين ، والحكومات . .

كل شئ ، من أجل الإنسان . .

فتقدَّم ، ومارس حقوق سيادتك تِجاهَ كل شيء . .

أخضِع كل شيءٍ لعقلك . حتى العقائد . . .

لا تَخْش شيئًا . . إن الله ذاته يشجعك على هذا السلوك .

بل إن حكمة الخلق . لَتكاد تُومئ إلى أن المحاولات التي نبذلها لكي نعرف – من أهم مقاصد الخلق . .

فما كان أيسر أن يكشف الله لنا أوّلاً ، وبدَاءة . . كل اسرار خلقه . .

ولكنه تركها مُستسِرَّة مخبوءة . لنكشفها نحن بمحاولاتنا .

لنسأل : كيف . . ولماذا . . ! ثم نتابع السؤال والمحاولة حتى يأتينا اليقين . . وخلال عملية المعرفة هذه لا نكتشف المعرفة وحدها ، بل ونكتشف أنفسنا معها . . ! !

* * *

إن الإنسان حين استمسك بكلمة « كيف » وجعل منها أداة تطلُّع ومعرفة ، أنشأ العلم ، وحَلَّ الكثير من ألغاز الكون . .

منذ بدأ يقول « كيف » . . ؟ وقلاع المجهول تستسلم له قلعة وراء قلعة . .

كيف يسقط المطر . . ؟ كيف خُلقت الأرض ؟ كيف أتى الإنسان ؟ كيف تعمل المادة . . ؟ كيف يتنقل الصوت

والضوء . . ؟

أسئلة كهذه غيَّرتْ مَصيرَه ، أو قولوا كشفَت مصيره . .

وكلمة « كيف » كانت « الشفْرة » التي خاطب بها المجهول . .

ولقد توصَّل بـ « كيف » إلى معرفة الكيفية التي تعمل بها الحياة . . وسيصل بـ « لماذا » إلى حكمة الحياة . . ! !

ففي حياتنا العامة ، وفي شئوننا العامة ، علينا أن نتوسل دائمًا بهذين المحركين القويين : إلى أين . . ؟ ولماذا . . ؟

أمام قوانين الجماعة ، ونظمها – وأفكارها ، والتيارات الظاهرة ، والخافية فيها – قف ، وتساءل : إلى أين ، ولماذا . . ؟

ناقش كل شيءٍ . . وافهم كل شيءٍ .

ولا تُرِحْ نفسك من عناء التفكير في المسائل العامة ، فتلك الراحة موت مُحقَّق . . !

وتجنب « الحياد » تجاه الواجبات العامة ، والقضايا العامة . .

فالحياد فضيلة ، حين يكون موقفًا تجاه باطلين يتصارعان . .

أما حين يكون الصراع بين حق وباطل ، فلا حِياد . .

وكذلك حين يكون الحياد تَخلِّيا عن مسئولية دراسة الأوضاع العامة ونقدها – فإنه لا يكون حِيادًا مقبولا . .

بل يكون – كما قال بركليز – خيانة وهروبًا . ! !

لا بد أن يكون لك موقف أمين تجاه كل وضع ، وكل مبدأ ، وكل تطبيق . .

ولا بد أن ينبعث هذا الموقف من روح تريد البناء ، لا الهدم ، والتقويم ، لا التقويض . .

ولا بد أن يكون هذا الموقف ، موقفك أنت ، فليس يغني عنك شيئًا أن تقول : إن الآخرين يعملون . .

كلا – إن الحياة تريد عملك أيضا . . تريد موقفك أنت . . ورأيك أنت . . تريده حتما وتريده بأسلوبك وبطريقتك . .

تأكَّد من أنك تعطي الحياة بقدر ما تأخذ منها . .

تأكد من أن الأفكار التي تغذي عقلك ، هي خير الأفكار . .

تأكد من أن القوانين التي تُسَنُّ في بلدك إنما تُسن لصالح الناس . .

ناقش جميع الذين معك ، وحولك . .

ناقش نفسك ، وحاكمك ، وأستاذك ، وأباك . . وإذا أنكر أحد عليك هذا الحق ، فأَخرِجْ له شهادة ميلادك ، لتذكّره بأنك إنسان « ! »

عندما تقدمَ من رسول الله أحدُ الناس يقول له :

« اعدِلْ يا محمد ، فليس المال مالَك ولا مالَ أبيك » . .

همَّ به « عمر » ليسكت أنفاسه ، فرده « الرسول » قائلا :

« دعه يا عمر . . إن لصاحب الحق مقَالا » . . ! !

لم يكن الرجل صاحب حق ، لأن « الرسول » لم يظلمه ولم يظلم غيره ، بل كان – عليه السلام – يجوع ليشبع الآخرون . .

وإنما أراد « الرسول » أن يحمي حرية النقدِ ، وأراد أن يشجع الأدنى ، على مناقشة الأعلى . . ! ! !

ولقد حَذِقَ « عمر » الدرس ، فحين وَلِيَ إمارة المؤمنين . واقترب منه من يقول له : « اتق الله يا عمر » . .

اعترضه أحد الصحابة زاجرا إياه وقائلا له « أتقولها لأمير المؤمنين . » . . ؟ ؟

هنالك قال عمر « دعه . . فالويل لكم إذا لم تقولوها . . والويل لنا إذا لم نسمعها . . ! ! »

ولكن ليس معنى « لماذا » أن تكون فُضُوليًا متطفلاً مَقِيتًا ، فتقتحمَ من أسرار الناس وحُرماتهمْ ما ليسَ لك بحق . .

إنما هي أداة لفهم الأشياء والمسائل ، فهمًا يعينك على

اتخاذ موقف صالح تجاهها . .

وأداةً لفهم الناس فهما ليس الغرض منه تبين مواطن ضعفهم لاستغلالها ضدهم . . بل الغرض منه مساعدتهم . والأخذ بأيديهم . .

كذلك ، ليس معنى النقد أن تكون سليط النفس ، واللسان . . وأن تَصْدُرَ فيه عن رغبة شريرة في الإيذاء والكيد . .

إن الحياة لا تضيق بالنقد ، لكنها تضيق بالحقد . فأَدِّ واجبك كناقدٍ أمين ، ومُحِبٍّ غَيور . .

* * *

وانقُد – حين تنقد – في حدود خبرتك ومقدرتك . .

ودعني أَقْصُصْ عليك هذه الطُّرْفة ، فإنّ لها دلالةً نافعة . .

قالوا : إن رسّاما شهيرًا ، آمَنَ بجدوى النقد ونفعه ، فكان يضع لوحاته خارج مرسمه لَدَى الباب ، ثم يجلس خلفها في وضع غير منظور ، مصغيا لآراء السابلة . . .

وذات مرة ، عبَر الطريق « إسكاف » عرفه الرسام من صوته . . وتملّى الرجل اللوحة ، وأبدَى بصوت مسموع كمن يحدث نفسه بعض ملاحظات ، صادفتْ لدى الرسّام ارتياحًا ،

وقَبولا . .

قال الرجل: ما أبدَع هذا الرسم ، لولا أن عُنقَ الحذاء أطول مما ينبغي . .

، وحين استرجع الرسام لوحته ، أصلح عنق الحذاء . .

وفي اليوم التالي أعاد اللوحة إلى مكانها خارج المرسم وجلس هو في مكانه . . .

ومرّ « الإسكاف » كعادته . . وكم كان عجبه ، إذ رأى عنق الحذاء قد تقاصرَ كما كان يريد . . ! !

هُنالِك أخذه الزَّهو . ومضى يبحث عن عيوب أخرى . .

وسمعه الرسام يهمهم قائلا : « والصَّدر أيضاً . . إنه بارز أكثر مما ينبغي » . . !

عندئذٍ برز الرسام من مكمنه وقال له :

– اسمع ياصديقي . . اسمح لي أولا أن أشكرك على ملحوظة الأمس . واسمح لي ثانيًا أن أقول لك : إن نقد الإسكاف ، يجب ألا يُجاوز عُنقَ الحِذاء . . . ! ! !

ليس هذا حدًا من نشاط النقد الحر ، ولا تهوينًا من شأن الناقد إذا لم يكن ذا جاهٍ أو مكانة . .

أبدًا . . وإنما هو دعوة لاحترام أمانة النقد ، وقصر آرائنا على الجوانب التي تسمح لنا خِبرتنا أن نُصدر فيها أحكامًا عادلة . .

وهذه القصة . تمثل واجبنا تِلْقاءَ نقد الحياة . .

فلكل منا خِبراتُه ، ومَجالُ معرفته ، وعليه أن ينقُدَ الحياة من خلال خبرته ؛ وتجربته ، ومعرفته . .

فالنقد يكون مُجْدِيًا ، حين يجيءُ من خبير عارف .

أما حين يكون مجرد ادعاء ، وَتقحُّم ، فلا خير إذن فيه ، ولا نفع له .

* * *

وليس معنى النقد إصدار أحكام مطلقة . يضيع ما فيها لتحديد الحق من مغزى . . وليس النقد أحكامًا متطرفة تُحصي السيئة ، وتجحد الحسنة . . ولا أحكامًا عَشوائية ، تُلْقَى في غير تثبت أو اكتراث . .

إنما النقد أمانة ، وقضاء . .

وله ما للأمانة وللقضاء من حرمة وتَحوّط . .

* * *

إن كل فرد في هذه الحياة ، مَدعُوّ لأن يحرك وجوده بأن

يسأل ، ويفحص ، ويناقش ، وينقد . .

كل فرد ملزم بأن يحمي الحياة من العبث . ويقف منها موقف « حارس البرج » يقظان مستعداً . . .

وإذا كان حارس البرج ، يتبين أشباح الظلمة بصيحته : مَن هناك ؟

فإن حارس الحياة يتعقب نفس الأشباح بسؤاليه : « إلى أين » . ؟ « ولماذا » . . ؟

فابعث من طوايا العزلة وجُودَك المستقِلَّ الواعي ، وأدِّ دورك ، كما لوكانت الحياة لا تحيا بغيره . . . . ! !

إن التبعية المستسلمة والانصياع الأعمى يُشكِّلان خطراً داهماً . على تفكيرك . وعلى مصيرك . .

بل وعلى مصير الجماعة التي تعتمد على رأي كل فرد من ذويها .

ولقد ضرب الله هذه التبعية مثلا في قرآنه الكريم ، فقال :

« إذْ تَبرَّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا . ورَأَو العذابَ ، وتقطَّعت بهم الأسباب . .

« وقال الذين اتَّبعوا . لو أن لنا كَرَّةً ، فنتبرَّأ منهم ، كما

تَبرَّأوا مِنَّا . . ؟ كذلك يُريهم الله أعمالَهم حَسراتٍ عليهم ، وما هُم بخارجين من النار» . . ! ! !

وإليك مثلاً آخر ، يحذرك الله به من أن تفقد نفسك ، واستقلالك أمام من هو أكثر منك قوة ، أو أرفع جاهًا . .

إذْ يقول سبحانَهُ :

– « وإذا يتحَاجُّون في النار . .

« فيقول الضعفاء الذين استكبروا : إنَّا كُنَّا لكم تَبَعًا ، فهل أنتم مُغنون عنا نصيبًا من النار . . ؟

« قال الذين استكبروا : إنَّا كُلٌّ فيها : إن الله قد حكَم بين العباد » . . . ! ! !

أجل . . إن الله قد حكم بين العباد ، فإذا سكَت الناسُ عن حق ينتظر مُسَانَدَتهم إياه ، أو جَبُنوا أمامَ باطل ، يستحقُّ دَحْضَهُمْ له . . فإنهم جميعًا يُنادَوْنَ إلى القصاص ويدفعوْن ثمن سُكوتهم ، وهُروبهم . . ! ! !

* * *

إن الحياة تدعوك مُلِحَّة . لِتعلن فيها رأيك . .

فتقدَّم . . وادرس . . وناقِش . . ! ! !

إن أكثر معجزات تقدمنا الإنساني ، إنما بدأت بلفتةِ ناقد أمين .

والحياة الإنسانية لا تريد لأعضائها أن يعيشوا عُمْيًا ، ومعهم أعينهم . . وبُكْمًا ، ومعهم ألسنتهم . . وصُمًّا ، ومعهم آذانهم . .

وإنها لَتبارك علاماتِ الاستفهام البشرية ، وتفتح لهم ذراعيها . . ! !

فكن « عَلامةَ استفهام » دائبة التنقل بين الأشياء حتى تفهمها ، وحول المشاكل حتى تجد لها حَلاً ، أو تُسهِم مع الذين يبحثون لها عن حلول . .

وامضِ في حياتك بصيرًا . . عارفًا . .
غيرَ أعمىَ . . وغيرَ مخدوع . . ! ! !



الوَصيّة السَّادسَة

عِشْ صَديقًا طيّبًا

وَلْيَكُنْ «إسْمُكَ» نِداءَ النَّجْدَةِ لِلْمَكْرُوبين..

وَلْيَكُنْ «قلبُكَ» مَرفَأَ الرَّاحَةِ لِلمتعَبينَ..

من مادَّة لغوية واحدة ، جاءت كلمتا . . « صدق » « وصَداقة » وكَلِمَتا « صادق » و « صدِيق » . . ! !

والصداقة ، التي هي أعلى مِنَح الحياة ، تمتزج امتزاجًا كاملاً بالصدق الذي هو أسمى فضائل الحيَاة .

وقديمًا ، لم يأسف « سقراط » لشيء ، مثلَ أسفهِ لعدمَ اهتمام الناس بالصداقة ، . ! !

ومنذ عهد « سقراط » إلى يوم الناس هذا ، مرَّ بالحياة كثيرون من الذين قدَّسوا الصداقة ، وكثيرون من الذين أبِقُوا منها ، وعاثُوا فيها فسادًا . .

ولكن ، مع المستوى العام للتقدم الإنساني . تسير الصداقة مُجتازةً أضغانَ الأنفس ؛ محققة لنفسها انتصارًا وتقدمًا . .

وتحتفي الحياة – أول ما تحتفي – بالذين يرعون الصداقة ، ويسقون شجرتها المباركة . .

فهل أنت واحد من هؤلاء . . ؟ ؟

دعني أولاً . أذكّرك بأنك لا تعيش في الدنيا وحدك ،

وأن العزلة محال . . ! !

فهما تحاول أن تنطوي على نفسك ، أو تعتزل الناس ، فإن لك بالآخرين ارتباطات ، ظاهرة ، ومخبوءة ، تربطك بهم ، وتجمعك وإياهم في لِقاء . . ! !

حين تجلس – مثلا – في خلوة ، تطالع كتابًا ، وتحمد العزلة التي أنت فيها ، أتظنّ أنك – ساعتئذ – في عُزلة . . ؟ ؟

أبدًا . . فهذا الكتاب الذي بِيَمِينك « سنترال » يَصِلُكَ بعددٍ كثير من الناس من غير أن تدري . .

فهناك مؤلف الكتاب يعيش معك . ويؤثر فيك . وهناك الذين تأثر بهم المؤلف نفسه ، وأثّر بعضُهم في بعض – تنتظمهم سلسلة طويلة ، وَرَتَلٌ طويل . . ! !

حيثُما وَلّيتَ وجهك ، تجد الحياة تواجهك ، وتتابعك بعلاقات كثيرة . .

في عملك ، تفرض عليك زَمالات ، تعرف منها وتنكر . .

في الطريق ، في « المترو » تلتقي بناس تُبصِرهم ، وينظرون إليك ، وتترك نظراتهم العابرة في نفسك من مَشاعِر الرضا ومن مشاعر السأم ما تحب ، وما تكره . .

بل في بيتك . ومع أسرتك ، ينقل إخوتُك وأبناؤك إليك ،

أصداء علاقاتهم بآخرين لا تعرفهم . .

هكذا يأتيك الناس في صُوَرٍ شتّى ، ويتسللون إلى حياتك ، راضيًا ، أو كارهًا . .

وفي دوَّامة الحياة الكبرى ، تُلاقي وجوهًا ، وتُصافح أيديًا ، وتُزاحِم مَناكِب ، وتُنشئ علاقات لا أوّل لها ولا آخر . .

ومن ثَمَّ ، كان تحديد صلتك بهذه الدوامة أمرًا ذا بال في حياتك ومصيرك . .

وعلاقات الناس بعضهم ببعض ، تَرْسمها وتحددها أكثر من جهة . . فهناك القانون ، وهناك الضرورة . وهناك العُرف .

ولكنْ خلال الرحلة الإنسانية الطويلة ، اكتشف الإنسان أعظم مكتشفاته في هذا السبيل – وكانت الصداقة . .

أجل – إن الصداقة ، هي قمة التطور الذكيّ السويّ ، للعلاقات الإنسانية بأسرها . . .

.. وإذا كان الناس مُذْ وُجِدُوا يكافحون الفقر ؛ ويهربون من شقائه . .

فاعلم أن شر صنوف الفقر ؛ هو فقر الأصدقاء . .

أجل . . ليسَ انعدام الثروة وحده هو الفقر . . بل إن انعدام الصديق ؛ يمثل لونًا كابيًا من ألوان الحرمان والمجاعة . . !

* * *

لا تُصدق أنك تستطيع الحياة بغير أصدقاء .

ولا تصدق اليأس حين يُلْقي في روعك أن الصداقة أسطورة . . وأن الناسَ – جميع الناس – ذئاب . . ! !

وليس عليك ؛ لكي تكتشف مَزايا الصداقة ؛ وَحَتْميتها ؛ ولكي تعلم أن الأصدقاء في الدنيا كثيرون . .

ليس عليك لتبلغ هذا ؛ إلا أن تبدأ أنت ، فتكون صديقًا .

جَرِّدْ من نفسك قاضيا على نفسك ؛ وأدِنْها ؛ قبل أن تقف من الآخرين قاضيًا وديَّانا . . ! !

فإذا بدَا لكَ منها قُصورها ، وتقصيرها . .

وإذا تبينت أنه ينقصك الكثير من خصال الصديق وسماته . . فاعلم أنه من هنا عَمِّت عليك رؤية الصداقة ورُؤية الأصدقاء ، وابدأ بنفسك . وكن صديقًا طيبًا . .

وابدأ هذه البداية ، بأن تعرف ، ما الصداقة . . ؟؟

* * *

الصداقة سلوك تُعَبِّر به النفس عن حاجتها إلى نَظِير . .

وهي « مشاركة » خالصة بين اثنين أو أكثر ؛ على مستوى عالٍ من النبل ، والتفاهم ، والإيثار . .

وهي لهذا ليست « اتفاقا تجاريًا » بين اثنين . . بل هي « ميثاق » بين قلبين ، وحياتين ، وإنسانيتين رفيعتين . .

وكما تبذل جهودًا عظمى : لكي تظفر بإجازة علمية كبرى ، عليك أن تبذل جهودًا مماثلة ، لكي تظفر بصداقة صادقة . . !

إن جهلنا بحقيقة الصداقة ، يحرمنا من مباهجها الباقية . .

فنحن نحسبها مِزاحًا ماجنًا . . أو نفعًا مُتبادلاً . . أو أو وُصولية زائفةً . . نحسبها « لقاء » حول مائدة قمار ، أو تواصيًا بأذىً ، أو سعيًا مشتركًا وراء غرض خبيث . . ! !

كما نحسبها تبعية ، ينماع فيها أحد الصديقين ليصير للآخر مجرد ظِلّ ، ورَدِيف . . ! !

نحسب الصداقة كذلك . . وأسوأ من ذلك . . . ونقيم علاقاتنا الناشئة عن هذا الفهم المغلوط على شَفا هاوية . .

حتى إذا زلت الأقدام ، وهوت من تحتها الأرض الرِّخْوة صرخنا قائلين : يا أسفًا على الصداقة . . ويا ضيعة الأصدقاء . . !

ولو فكرنا قليلا . لعلمنا أن الذي كُنا فيه لم يكن صداقة . وإنما كان ضربًا من التسلية الفارغة ، والنفعية المرذولة ، واللقاء التلقائي . . ! !

أما الصداقة الحقة ، فهي أبقى على الزمن من الزمن نفسه . .

فإذا شئتَ أن تكون صديقًا ، وتَنعم بالأصدقاء ، فأدركْ حقيقة الصداقة جيدًا ؛ وهيِئْ نفسك لحمل تبعاتها النبيلة : وضَعْ نفسك على الغِرار الذي تتطلبه الصداقة . .

ويومئذ ، لن تندُب نُدرة الصِّحاب ؛ لأنك ستجدهم كُثرًا مُباركين . . . ! !

ولن تشكو غدر الأصدقاء ، لأنك ستجدهم أوفياء مُؤْثِرين . . ! !

* * *

زوِّد نفسك بفضائل الصداقة . وَعَبِّئها بهذا المدد الكبير من الحب والخير ، ونَمِّ فيها نزعة الإيثار حتى تتسع وتتراحب لإيلاَفِ الناس جميعًا . .

كن صديقًا لمن تعرف . . ولمن لا تعرف . .

افرح لكل فوز شريف ، يناله إنسان — حتى إذا كنت لا تعرفه . .

وتهلَّلْ لكل خير ينزل بساحة إنسان – حتى إذا كنت تجهله . .

وأسهِمْ في حل مشكلات الذين يدفعهم إليك الأمل فيك . . حتى لو لم تربطك بهم رابطة دانية . .

وتألم في نُبلٍ للأسى الإنساني ، حيث يكون . . ! !

اجعل من نفسك « مَرْفأ » تأوي إليه الزوارق التائهة التي زلزل الإعصار والموج ثباتَها . . .

وليكن اسمك – مجرد اسمك – كنداء النجدة . . لا يكاد المفزَّعون يسمعونه حتى تسكن ضلوعهم الواجفة ، وتعود إليهم طمأنينتهم الضائعة . .

لا تحسبني بهذا مبالغًا في رسم صورة الصديق . .

فالصداقة استعداد ، هذه أُولَيات سِماته . .

والإنسان الذي لا تكون نفسه مهيأة للخير العام عامرة به ، هيهات أن تواتيه القدرة على أن يكون صديقًا ، ولو مرة واحدة . !

فالصديق رجل كبير ، لا يعرف قلبه الحقد ، ولا يعرف ضميره عدم الاكتراث . ولا يضنّ على الناس كافة بما معه من رحمة ، وحنان ، ونَجدة . .

والصديق ، « قارَّة » كبيرة يجد النّازلون بها رَحْبًا ، وسَعة .

وألوانًا شتى من المباهج والفرص الحرة الكريمة . .

والصديق . لا تنعكس فضائله على الذين يعرفهم فحسب . . بل على ما حوله جميعًا . . كالشمس ترسل دفئها وضياءها لكل ما هنالك من حياة ، وأحياء ، وأشياء . . ! !

تفيض بغير حساب ، وتعطي في غير مَنٍّ ، وينال خيرَها ، من تفصلهم عنها مسافات ، وأبعاد ، وعوالم . .

وكما أن الشمس لا تستطيع أن تقصر دفئها وضوءَها على قوم ، وتحرم آخرين . .

وكما أنها لا تفرق بين أحد ممن تعطي . .

وكما أن العطاء العميم الشامل ، هو طبيعتها ، وشيمتها .

فكذلك الصداقة تمامًا . . لا تقف بها علاقاتها الخاصة . . عن انطلاقاتها العامة . . ولا تشغلها النَّجْوى مع الأقربين عن عُبور المسافات الطويلة ، باذلة خيرها ، ناشرة عبيرها . .

إن كثيرين من الذين دأَبوا في ظلمة الليل . ووقْدة الحر ، على كشف دواء يشفي المرضى ، أو اختراعٍ ييسر للناس وطأة العيش ، ويُذلّل لهم طرائق الحياة – إنما كانوا مدفوعين برياح الصداقة العميمة للبشر جميعًا . .

ولقد عبَّر أحدهم عن المستوى الشامخ الرضِيِّ من الفهم حين قال مخاطبًا زوجته : « دعيني أعمل من أجل أصدقائي الذين لا أعرفُهم » . . ! !

* * *

ذات يوم ، ورسول الله جالس مع أصحابه ، رنَا ببصرُه الحاني ، صوب الأفق البعيد في هُيام ووجد ، وقال :

– « يا ليتني قابلت إخواني » . . ! !

فسأله أصحابه : يا رسول الله ، ألسنا إخوانَك . . ؟ ؟

فأجابهم : « بل أنتم أصحابي . . ولكنّ إخواني ، قوم يأتون بعدكم . . يؤمنون بي كإيمانكم . . ويحبونني كحبكم من غير أن يروني ، فيا ليتني قابلت إخواني » . . ! ! ،

انظر ، كيف اتسعت دائرة الشعور بالإخاء ، وبالصداقة ، حتى أدركت العوالم الوافدة من البشر ، والأجيال التي تفصلها حواجز الأحقاب والقرون . . ؟ ! !

ذلك أن « محمدا » عليه الصلاة والسلام ، كان يحمل الاستعداد الكامل للصداقة الكاملة . .

والاستعداد في هذا المستوى ، يكون كما أسلفنا كالشمس . .

إنها قائمة ترسل الدفء والضياء ، فمن تعرَّض لأشعتها اغترف منها ، ونَعِم بها .

كذلك الذين وُهِبوا فضيلة الصداقة . .

علاقاتهم الشخصية لا تمثل كل المجال الذي تنشط فيه عواطفهم الطيبة . . وإنما تمثل نِقاط الْتقاء ، أزجَتْها ظروفها . .

إن « السنترال » الكبير ، ينتظم آلافًا من خطوط الاتصال التليفوني . ! فإذا عملت منها ألف واحدة ، فليس معنى ذلك أن طاقة « السنترال » هي هذه الألف وحدها .

كلا . . فهناك طاقة كبرى ترعَى آلافًا أخرى من الخطوط ، تنتظر توصيلها . .

كذلك الصداقة الصادقة ، تتسع لكل قلب يريدها ، وتعطي من وُدِّها الصافي عَطَاءَ من لا يخاف خَصاصةً أو فقرًا . .

* * *

نَمِّ هذا الفهم وهذا الحس في نفسك . . وأَقبِلْ على الناس بروح صديق . .

وإذا التقيتَ بالذين ستجمعك بهم صلة الصديق القريب المباشر فضع في عزيمتك أن تكون خير الصّدِيقيْن . .

هناك وصية للرسول تقول : «كن خيرَ ٱبْنَيْ آدم» . .

أي إذا اجتمع اثنان ، وكنتَ أحدهما ، فكن خيرهما . .

إن معظمنا يطبق هذه الوصية بعد أن يَقْلِبَها ، ويجعلها تقف على رأسها . . ! !

فحين تجمع ظروف العمل أو الحياة بين اثنين منا ، يجتهد كل منهما أن يكون خيرًا من الآخر ، مظهرًا ، وأرفع منصبًا ، وأكثر وجاهة . وكبرياء ، وغطرسة . . ! !

ليس هذا ، ما تريده الوصية الكريمة : «كن خير ابني آدم» . .

إنها تريد أن تسبق الآخر في الإيثار ، والتواضع ، والبر ، والوفاء . .

كان جماعة من الصوفية في سفر ، وعند المبيت ، أقبل أحدهم يسألهم عن غطاء اشتراه للسفر وأعده للرحلة فقال : «أين غطائي» . . ؟ ؟

فَدَهِشوا . . وقالوا «غِطاؤك» ؟ ؟ أوَ لَكَ غِطاء ، ولنا غِطاء – ؟ ؟ اعتزلنا . . ! !

لا أقول : إن هذه قاعدة عامة لسلوك عام . . لكنها إيماءة

إلى اللُّباب الذي تنطوي عليه كل علاقة إنسانية صادقة - حيث يختفي التمايُز ويفقد « ضمير المتكلم » حقه في التوكيد على نفسه ، وتنادي الصداقة ذَوِيها وأهلها ، إلى مُباراة نبيلة في الإيثار والمكرمات . . ! ! !

كن خير الصديقين إذن ، ولن تخسر شيئًا ، بل ستجني أشهى ثمرات الوجود . .

واجعل أساس الصداقة بينك وبين من تصادق - العلاقة الطاهرة التي تحدوها أسمى البواعث ، ولا تلوثها الأطماع الهزيلة . . .

* * *

واختر أصدقاءك . .

بقدر ما يكون توقيرك للصداقة ، سيكون اهتمامك باختيار الصديق . .

لقد قال « الرسول » : « المرءُ على دِين خليله ، فلينظر أحدكم من يُخَالِلْ » . .

إن اختيار الصديق . يُشكِّل في حياتك أهمية بالغة . ذلك لأن كُلاً منَّا تنقص حياتَهُ جوانب ، كان يتمنى إدراكها . .

وكل منا ، كان يود لو استطاع أن يختار حياته . . يختار فضائلها ، ويختار ظروفها . .

أما ، وذلك غير ممكن ، فإننا نلتمس العِوَض عند الأصدقاء ، فنختار منهم الذين نستطيع أن نستدرك بهم ما فات حياتنا من فرص الخير والتفوق . .

ذلك أن الصديق ، بحياته ، وبفضائله ، يصير امتدادًا لك ، وتَتِمَّة لك . .

وإن حياتك لَتتأثر به ، وتنعكس عليها كل مَناقِبه ومزاياه . .

فإذا اخترته ، وأحسنت اختياره ، كنت كأنك اخترت حياتك من أولى لحظاتها . . ! !

فمزاياه التي تنقصك ، تصبح ملكا لك . .

والفضائل التي ضاعت منك في زحام الحياة ، تعود إليك مع هذا الصديق . . ! !

والحياة السابقة التي كنتَ تودّ أن تحياها ، وتَكُونَها ، تقترب منك ، إذا اخترت صديقك على غِرارها ، ومن طرازها . .

وهكذا ، فالذي يحسن اختيار أصدقائه ، يضع يده

على الحظوظ الوافية . .

إن الصداقة ، هي المرفأ الذي ننزل بساحته الآمنة بعد رحلة فيها مشقة وكَبَد . .

وهي البهجة التي تزودنا بالقدرة على مغالبة الصعاب . .

وهي ضوء الفجر الذي يذكرنا بأن الحياة تجدد نفسها دومًا ، وتبعث بأنفاسها العاطرة إلى الرُّقُودِ المتعَبين ، فيخفُّون سراعا ناشطين . . ! !

* * *

عندما أرى صديقين وَدُودَيْن ، يتبادلان النظرة الحانية ، والكلمة الدافئة ، ويتألق صفاء الأنفس على وجهيهما في مثل سَنى اللؤلؤ . أقول لنفسي : انظر . إن الحياة في عيد . . ! !

* * *

وقد تسألني . كيف أختار صديقي . . ؟

وأجيبك قائلا : استَفْتِ قلبك . . فأنت أدرى الناس بالصديق الذي تريده . . ولكن لا ينبغي أن تسمح للرغَبات الرخيصة أن تستهويك مظاهرها ، أو يُضِلَّك زيفُها .

فاختر صديقك في ضوء الإنسانيات الرفيعة . . في ضوء

القيم العليا التي لا يهبنا الخيرَ مثلها ، ولا يرفعنا عاليًا سواها . . ! !

ليس معنى هذا ، أن تنشد ملاكا لا يخطئ ؛ فأنت في أرض الناس ؛ ولست في سماوات الملأ الأعلى . .

إنما اهتداؤك بالقيم والإنسانيات الكريمة ؛ سيتيح لك التعرف بأقرب الناس رُحْمًا إلى الخير والنبل . .

لا تختر الصديق لثرائه ، ولا لجاهه . .

فالحياة كثيرًا ما تسْخَرُ من أصحاب هذا الاختيار ، بأن تُخبئ لهم في الطريق خيبة أمل عريضة ، تفاجئهم بها في قهقهة وشماتة . . ! !

إنما عليك أن تختار الصديق لثراء روحه ، وجاه خِصاله ، وأناقةِ نفسه ، ووثَاقةِ خلُقه ، وتماسُكِ بنيانه . . ! ! !

لا تختره مِهذارًا ثلاَّبًا . يُسلِّيك بالتندُّر على الناس ؛ فهذا الذي يهبط بحياتك إلى أدنى الحضيض . .

والذي يقول اليوم « لك » فيضحكك . سيقول غدًا « عنك » فيبكيك . . ! !

لا تختره حاقدًا . . شعار حياته « سُحْقًا للناجحين » ، فإن العواطف مُعدِية ، وصحبتك لهذا التعس ، تجعلك مثله تعِسًا . .

لا تختره من الذين يرون الحياة لهوا ، ولعبا ، وسيجارًا ، وكأسًا . فإن الحياة في صحبة هؤلاء ، تتحول إلى نِفاية ويَباب . !

بل اختر الصديق الذي يرى في نجاح الآخرين ، نجاحًا له وحُسن ثواب . .

اختر دافئ اللسان ، عَفّ النفس ، رَيّانَ الضمير . .

اختر مَن لحياته قيمة بما يبذل من جهد ، وبما يلتزم من واجب ، وبما يُمارس من دور عظيم . .

* * *

فإذا اخترت أصدقاءك ، فاذكر كلمة « هويتمان » :

– « إن وراء كل ظفر يتحقق ، حاجة إلى الجهاد أشد وأعظم » . .

أجل . عندئذٍ قل لنفسك . لقد وجدتُ الأصدِقاء ، والآن عليَّ أن أحتفظ بهم . .

لا تكن كالذي ينقُض غَزْلَه ، ويبني ليهدم . . !

إن الصديق القويم ، هو الجزء الغائب من حياتك ، فإذا أعْثَرَك الله عليه ، فاجعل من تمام شكره أن تحتفظ بهذه النعمة ، وترعاها ، ولا تدعها تفلت من بين يديك . .

إن الصداقة في مجتمعنا رخيصة ، وليس أهون علينا من

التفريط فيها وعدم الاكتراث بها . .

فتفوق على هذا السَّفه ، وكن واحدًا من الذين يَردُّون الأمور إلى رُشْدِها ونُهَاهَا . . ! !

* * *

ولكي تحتفظ بأصدقائك . .

* – ابذل من وفائك بغير حساب.. فالوفاء لا ينقص بالبذل وإنما ينمو ويزيد . . ولا تظن أن الوفاء مقايضة . . فهو يُولِمُ لك ، فتولم له . . وهو يهدي إليك . فتهدي إليه . . وهو يزورك ، فتزوره . . .

إن هذه مع أهميتها قشور ، إذا لم تُفعَمْ بواطنها بروح الوفاء . .

وروح الوفاء ، مِعطاءة دائمًا . ومهيأة باستمرار لإرسال فيضها وسناها . لا تسأل : إن كان الذي ستدثره بسموها . يستحق أو لا يستحق . . لأنها تعبر عن نفسها . وتتنفس طبيعتها الفاضلة . . واذكر أن الصديق . شخص آخر له شخصيته ، وله كيانه . . فلا تحاول أن تجعل منه تابعًا لك . . لا تحاول أن تفرض عليه رأيا لا يقتنع به ، أوسلوكًا لا يريده . .

وحتى إذا كنت متفوقًا عليه في بعض مَزايا الخلق ،

فلا يحملنك ذلك على دمجه فيك ، وصوغه على غرارك . .

لَوِّحْ بفضائلك أمام روحه في رفق . . ودعها هي تقترب منها ، وتختر طريقة الأخذ عنها . .

أما أن تحاول تغيير طباعه طَفرةً ، فهذا أقرب الطرق إلى أن تخسره . .

إننا نخسر الزهرة ، إذا تعجلنا نموها ، فقطعناها. . .

أما حين نتركها فوق ساقها وجذرها ، تمتص عن طريقهما من الأرض الحياة ، فإننا نسمع صوت نموها في غبطة وأمل . . !

كذلك صديقُك ، لا تتعجل نموه بفصله عن ذاته ، وإلحاقه بذاتك أنت ، مهما تكن فاضلاً ، ومتفوقًا . . بل ساعده على توثيق عُرَى وجوده ، وإزجاء الظروف الطيبة التي تسمح لفضائله بالازدهار. .

اذكر دائمًا أن الصداقة مشاركة ، لا تَلاشٍ ، ولا ذوبان . .

وليس من عمل الصداقة إزالة التخوم الطبيعية القائمة بين شخص وآخر . .

إنما مهمتها ألا تتحول هذه التخوم إلى « خطوط قتال » . بل ولا إلى « خطوط هدنة » . . إنما تظل حدودًا مشتركة .

وأرضًا جامعة تترعرع فوقها صَداقات عِدَّة ، وعلاقات طيبة ، وتُؤتِي كلٌّ روح هُداها . . ! !

* – ساعد صديقك على أن يُهْرَعَ إليك بأسراره وهو مطمئن . .

فنحن جميعًا تمر بنا تلك الأوقات التي ننوء فيها بأثقال أنفسنا . ونبحث عن الإنسان الأمين الذي نستطيع أن نفرغ أمامه همومنا ، ونخرج له خبئ أنفسنا ، ونكشف له كل ذواتنا الباطنة . وشئوننا الخاصة . ونفتح له أبواب مملكتنا التي لا يعرف أسرارها أحد سوانا . .

وحين يُسِرُّ إليك أحد بخاصة أمره . فهو في الحقيقة يدعوك لتحمل عنه بعض همه . . فكن نبيلاً ، واجعل لسر صديقك حرمة وقَدَاسة تنأَيَانِ بك عن كل تفريط في صونه وكتمانه . .

إن حفظ السر أصدق دلائل الرجولة ، والقوة . .

والإنسان الذي يضع أسرار الآخرين على طرف لسانه الثرثار لا يساوي وجوده ، رسم « شهادة الميلاد » التي لا يملك من مظاهر الحياة سواها . . « ! ! » .

* – والصداقة ، كالكائن الحي ، تحتاج دومًا إلى غذاء وريّ . فلا تسلم علاقتك الودودة للفتور أو الشك . .

تعهدها دائمًا كما يتعهد البستاني الحاذق زهور الحديقة وثمارها . .

اسْقِهاَ بالكلمة الحلوة ، وبالبسمة الحانية ، وبالنظرة الصافية ، وبالمجاملة الصادقة ، وبالمشاركة النبيلة ، وبالثقة الوطيدة . .

* – والصداقة خُلطة دانية ودائمة ، وكل خلطة بين اثنين عرضة للعثرة ، وسوء الفهم . .

فَوطِّد نفسك على النسيان والصفح ، ولا تجعل أعصاب الصداقة مشدودة متوترة . .

وَطِّن نفسك على أن تكون للمعاذير عندك حرمة ، وللعثرات من تسامحك نصيب . .

وإذا اعتذر صديقك عن خطأ أتاه ، فتقبل اعتذاره بطريقة تُنسيه خطأه . . ولا تلجّ عليه في تذكيره بخطئه ، ولا تكن في عتابه لجَوجًا . .

هناك وصية حكيمة . قالها الرسول عليه الصلاة والسلام :

– « من أتاه أخوه مُتنصِّلاً – أي معتذرًا – فليقبل منه ، مُحِقًّا كان أو مبطلاً » . . .

بالله ما أروعها . هذه العبارة الفاصلة : « محقا ، كان أو مبطلاً » !

ذلك أن الاعتذار ، يتضمن الاعتراف بالخطأ ، ويتضمن الرغبة في مغفرته . .

فالذي لا يستجيب وجدانه لمثل هذه المواقف استجابة كريمة لا يكون إلا صاحب إنسانية متخلفة ؛ تتسم بالبلادة والجفاف . . . ! ! !

* – والصداقة ، اهتمام حافل بالرغبة في الخدمة ، وإسداءِ العون . فلا تحمل همومك إلى صديقك ، ثم تعطيه ظهرك حين يحمل إليك همومه . .

لا تُطالبه بالتفكير من أجلك ، وتُخَلِّي نفسك من مسئولية التفكير معه ، ومن أجله . .

لا تُفِضْ في الحديث إليه عن نفسك ، ثم تنصرف عنه حينما يحدثك عن نفسه . .

ولا تعامله كطفل ، فتجامله مجاملة تستُر عنه أخطاء – يجب أن يتبينها ، أو تشبعُ فيه غرورًا – يجب أن يتخلى عنه . .

لا تخذل طموحه العادل ، ولا تثبط همته الواثبة . . .

ولا تتخلف عن نصرته حين يستنصرك ؛ ولا تجعله يفقدك حين يحتاجك . . ! ! !

هناك نوع من الناس ، لا يمكن الاعتماد عليهم ، إلا حين لا تكون ثمت حاجة إليهم . . ! !

فلا تكن واحدًا منهم ، ولا تتخذ لنفسك صديقًا من بينهم . فعظمة الصداقة ، أنها تحمل مسئوليات لا تفرضها قرابة ، ولا دم . .

وإنها لتحملها في غبطة تجل عن النظير . .

ضع عينك على محاسن صديقك دومًا ؛ وتحدث معه بشأنها ، وامنحها ما تستحقه من تقدير وتوقير . .

* * *

وبعد . . فإن كل ما كتبته لك هنا عن الصداقة ؛ لَخَّصَهُ ، وربما زاد عليه ؛ إمام جليل من أئمة التصوف والهدى . .

ذلكم هو « السَّرِيُّ السقَطِيُّ » رضي الله عنه . .

أتحب أن تعرف ما قال . . ؟ ؟

إليك عبارته التي لم يُقَلْ في الصداقة ؛ أجمع ؛ ولا أمتع ، ولا أوجَز منها . .

ها.هي ذي : « لا تتم المحبة بين اثنين ؛ حتى يقول أحدهما للآخر : يا . . أنا » ! ! ! !

ولعل من الخير ؛ أن نجعل هذه العبارة المضيئة ختام حديثنا عن الصداقة .

وإنه لَخِتامٌ حافل . .

وإنه لَنِعم الختام . . ! ! ! !



الوَصيَّة السَّابعَة

اقرأ في غيرِ خضُوع..
وَفكِّرْ في غيرِ غرُور..
وَاقتنِعْ في غيرِ تعصُّب..

وحِينَ تكونُ لكَ كلِمَة، وَاجِهِ الدنيا بكَلِمَتِك!!!

لن تستطيع أن تكون إنسانا متطورا ،ناميا ، مستنيرا ، حتى تستعمل عقلك جيدًا . .

وفيما حولك ، تكمُن معارف ثَرَّة وحقائق كبرى – تنتظر العين التي تَرَى ، والأذن التي تَسمع ، والبصيرة التي تفقَه . . .

والفارق بين إنسان يحيا الحياة ، وتحيا فيه ، وإنسان آخر يسمونه « ميت الأحياء » . . الفرق بين الاثنين ليس في بهاء المظهر ، ولا في تراكم الثروة ، ولا في « شجرة العائلة » . . ! إنما هو في ثراء العقل ، والروح ، والخلُق . . ! !

والكون ، – كِتابُ ربنا – مفتوح لكل ناظر ، ميسَّر لكل قارئ . . ! !

ومن الأفذاذ الذين نرفع نحوهم أبصارنا في خشوع ، كثيرون أخذوا معظم ثرائهم العقلي والروحي ، من هذا الكتاب الكبير . .

نظرتُك إلى السماء ونجومها . . إلى الأرض وزرعها . . إلى البحر . . إلى النهر . . تأمّلك الناس ، والأشياء . . لحظاتُ

الصمت المفكر التي تستغرقك فيها سبحات روح طُلَعَة . . كل هذه أضواء تتيح لعقلك أن يكون نافذة قيمة على الحياة . . ! !

والكتاب المطبوع . مِرقاة كل إنسان حي إلى الكمال والتفوق .

والذي لا يُحْيِي عقله بالقراءة المستمرة ، يستحق العزاء ، والرثاء . . . ! !

فإذا كنت من الذين يقرءون ، فَهَنِّىء نفسك ، وطالبها بمزيد . .

وإذا لم تكن ؛ فأدرك مكانك في القافلة ؛ قبل أن تذهب نفسك حسرات . . ! !

إن الكلمة المطبوعة ، من أثمن ممتلكات الإنسان ، وخير ما أخرجت الحضارة الإنسانية للدنيا . .

وصُحبة الكلمة المطبوعة ، هي الحظوظ الوافية .

ولو خلَتِ الحياة من نعمة القراءة والفكر – لكانت عِبئًا لا يطاق . . .

هل تعرف أول كلمة تلقاها الرسول من ربه . . .؟ ؟

« اقرأ . . . » ! ! !

إنه رسول ، عابد . . رسالته وعمله ، دعوة الناس إلى

الإيمان بالله وعبادته . . .

ولو أننا تصوَّرنا أحق الكلمات بأن تكون بدءَ الوحي إليه ، لتصوَّرنا أن تكون : صَلِّ . . اعبد . . . آمن . . .

بيد أن الذي حدث أخلف الظنون ، وبهر الألباب . . !

إذْ كان أول تكليف تلقاه الرسول من ربه ، هي القراءة . . وأول كلمة أُلقيت عليه ، هي : اقرأ . . ! !

إن الله سبحانه ، يعلم بداية المعراج الذي يُفْضِي بذويه إلى القمم الضارِبة في الأفق الأعلى . .

يعلم نقطة البدء والانطلاق نحو كل عمل عظيم ، وغرض جليل ، ولقد أراد أن يدلنا عليها بهذه الكلمة التي استهلَّ بها الوحي إلى رسوله الكريم ، فقال : اقرأ . .

والحق أنه وراء كل عظيم – ولست أقصد بالعظمة هنا ذلك البذخ أو الامتلاء بماديات الحياة الدنيا – إنما أعني العظمة الحقة التي تجعل من صاحبها مَعْلَمًا من معالم الرشد الإنساني . . .

أقول : وراء كل عظيم ، حَشْدٌ كبير من الكتب التي قرأها ، وأعمَلَ فيها فكره الوثيق . . .

وحين تتتبَّع سِيَرَ عظماء البشرية ، تجد الشغف بالقراءة ،

كان السِّمةَ المميزة لطفولتهم ، ونشأتهم الأولى . .

لم يكونوا – على الرغم من حداثة سنهم يبحثون عن الكتب التي يطالعونها . بل كانوا يهتدون إليها بسلقية ذكية . . . كأنما كانوا مع هذه الكتب على موعد . . . كأنما طالعوا « فهارس » المعرفة ، وهم في أرحام الأمهات ، وجاءوا الحياة مزودين بِسجلٍّ يحمل أسماءها . . ! ! !

* * *

ترى هل أنت من القارئين ، الذين يحرصون على أن يعرفوا كل يوم جديدًا . . ؟ ؟

إنك – بوصفك إنسانًا – مُطالبٌ بأن تقرأ كثيرًا ، وتفكر كثيرًا . .

وبوصفك من سكان القرن العشرين ، مطالب بهذا أكثر من أبناء القرون الخالية . . .

فالحياة اليوم تتفاهم مع الأحياء بلغة فُصْحَى . . .

أعني أنها تتعامل معهم في مستوى رفيع وبعيد ، من المسئولية والتجاوب . .

والذين يُسايرونها من مستوياتٍ أدنى – لا يحسنون صنعًا ،

ولا ينالون منها إلا النفايات . . .

لهذا ، أقول لك : اقرأ . . واقرأ ، واقرأ دائمًا . . ! !

فالقراءة هي النور الذي يسعى بين يديك .

وهي الرئة . التي تَنْشَقُ بها الحياة . . .

والكتاب ، كما قيل ، خير جليس . وخير أنيس . .

ودعني أسألك سؤالا . . .

لو استطاع العلم أن يرد إلى الحياة بعض الناس لبعض الوقت ، وأذيع – مثلا – أن سقراط ، وأفلاطون ، والغزالي ، وشكسبير ، والمعريَّ ، وتوم بين ، وروسُّو ، وفولتير ، وابن رشد ، والفارابي ، وهيجل ، وماركس ، وجيته ؛ وأرسطو– سيكونون يوم « كذا » في مكان مّا من العالم . . وخلال الفترة التي سيقضونها أحياء سيستقبلون زائريهم ، ويتحدثون إليهم ، ويجيبون عن أسئلتهم . .

أفلا تركب إليهم ثَبَجَ البحر ، ومَخاطِر الجو ، وتُنفق من ثروتك بسخاء . كي تبلغ مكانهم ، وتجلس إليهم . . ؟ ؟ ! !

ألا فاعلم أن العلم قد ردَّهم إلى الحياة فعلًا . وأنهم وجميع إخوانهم المفكرين ، جالسون هناك . . ينتظرونك في كل وقت . .

وفي أقرب مكان.. وبأيسر نفقة..!!

أجل – في أي مكتبة من المكتبات المبثوثة تلتقي بهم في مؤلفاتهم..

لقد اخترع العلم الطباعة، وصنعت الطباعة الكتاب، وخلَّدت بين دفَّتيه أعظم تراث للبشرية كلها. وهو الفكر..

واعلم أيضًا – أنك حين تجلس مع كِتاب لأفلاطون، أو شكسبير، أو ابن خلدون. فأنت في الحقيقة إنما تجلس مع هؤلاء في أصفَى ساعات حياتهم: وتفوز منهم بمغانم قد تفوق مغانمك لو كنت تجالسهم أحياء..!!

ذلك أنهم في مجالسهم العامة. يُعطون ما عندهم مُرتَجَلًا ومُختلِطًا..

أما حين كانوا يجلسون للكتابة، فقد كانت عقولهم آنئذٍ في مستوى رفيع من الاستعداد، والتألُّق، والتفوُّق..

وكانوا يغيرون، ويخورون حتى تخرج الفكرة التي يعالجونها، ناضجة، وافية، باهرة الأسلوب..

وهكذا كل كاتب تقرأ له..

إنك إذْ تقرأ له، تجالسه وتزامله في أصفى وأملأ ساعات

حياته وإنتاجه..

ومؤلف الكتاب الذي تطالعه - حاضر معك إذ تقرأ، يتحدث إليك من خلال السطور المطبوعة بخير ما أوتي من قدرة على التفكير، والتعبير..

تُرى أي الأمرين خير وأبقى..؟؟

جلوسك في «مقهى» تمارس ما يسميه الناس «قتل الوقت»..؟!

أم جلوسك مع سقراط، وبرناردشو، وديورانت، وشوقي، وحافظ. وأعلام الفكر من كل عصر، ومن كل جيل..؟

أنا طبعاً لا أدعوك إلى أن تنسى حق نفسك عليك في المرح والراحة، والتسلية..

ولكني أَرْبَأُ بحياتك أن تذهب كلها تسلية..

وعزيزٌ عليَّ أن تعيش ما تعيش فقير العقل، جوعان الفكر، وحولك من الكنوز، ومن الأطايبِ ما يعرض نفسه عليك بغير ثمن، وبغير مَنٍّ، وبغير حساب..!!!

لقد أودعَ أساتذة البشرية تراثهم في الكتب.. فلماذا لا تنشيء مع هؤلاء الرجال الكبار صِلات..؟؟

لماذا لا ترتبط معهم بزَمَالة وصداقة..؟؟

لماذا لا تُسعد نفسك وتُشرفها بصداقة هؤلاء الذين أعلنوا رأيهم في الحياة واصطفاهم القدَر الإنساني ليقولوا كلمته، ويُسجِّلوا خُطاه..؟

اقرأ.. واقرأ.. اقرأ كثيراً، واقرأ دائمًا - إذا أردت أن تحيا..

ولا تسألني ماذا تقرأ..؟

فكل كتاب يزيدك معرفة، عليك أن تقرأه..

ليس في الثقافة حلال وحرام..

وليس في المعرفة مباح، ومحظور..

هناك - لا غير - كتب هزيلة، تحمل هذَراً، وإسفافًا..

هذه ليست لنا على بال..

إنما أنا أدعوك.. للمعرفة.. للثقافة.. وللثقافة والمعرفة عبير، سيقودك إليهما..!!

فكل ثقافة أَقبِلْ عليها، وكل معرفة، خُذ من مناهلها..

اقرأ في الأدب، وفي السياسة، وفي الأخلاق، وفي الاقتصاد، وفي العلم، وفي الدين، وفي الاجتماع..

اقرأ في كل شيء، وعن كل شيء.. وعِشْ في أوسع

مساحة ممكنة من المعرفة والفهم.

وإذا كان لا بد لك من أن تقرأ – فأكثرُ مِن « لَا بُدَّ » ، أن تعرف «كيف» تقرأ.. ! !

وإني ألخص لك هذا في عبارة وجيزة. هي ذي :

* – اقرأ في غير خضوع –.. ! !

إن للكلمة المطبوعة سلطانًا عظيماً ، وما لم تحتفظ بثبات رُشدك ، واستقلال عقلك وأنت تقرأ ؛ فستحملك على أجنحتها بعض الكلمات الآسرة ، وتلقي بك إلى مَتاهات ، يصعب العثور عليك فيها.. ! !

فاقرأ قراءة الأحرار ، لا قراءة العبيد..

اقرأ ، لتكتشف نفسك لا لتفقد نفسك..

اقرأ لتتبين الطريق ، لا لتصير ذَرَّة تائهة فوق الطريق.

اقرأ ، وناقش ما تقرأ ، واحتفظ باستقلالك الفكري ، ولا تجعل إعجابك بالكاتب ينسيك أنك إنسان مثله ، وأن من الممكن أن يكون تحت سطح دماغك ، كنوز تفوق كنوزه..

لا تستسلم لكل ما تقرأ ، ولا تستسلم لإغراء الكلمة ، فثمت كلمات تقرر من غير أن تدري مصيرَك كله..

فإذا كانت من الكلمات الجامحة ، أصابك منها ضر كثير ..

والكتَّاب الذين يكتبون أفكارهم بأسلوب ساحر آسر ، سِر بهم في أناة ..

إنهم جديرون بشكرنا وثنائنا ، وإعجابنا ، لا ريب ، ولكن اذكر أنهم مهما يُحلِّقوا عالياً. فلا ينبغي بحال أن نتلاشى فيهم . أو نذوب خلالهم ، أو نتبعهم صُمًّا وعُمياناً .. !!

ليس معنى هذا أن تقرأ وأنت تقاوم ، أو تطالع وأنت تُوسوس . ويأخذك في كل كلمة شك وارتياب .. لا - دع عقلك على سجيته ، وسيرتب هو أموره ..

وعندما تحس وأنت تقرأ بمثل حركة الرادار ، فقف ..

إن عقلك قد وجد نفسه هنا .. وإنك الآن أمام كلمة أو عبارة تحمل لك فيضاً من الأسرار والأفكار ، إذا أنت تدبرتها ونحَّيتَ الكتاب جانباً لتتأمل هذه العبارة التي اهتز عندها وجدانك ، واختلج عقلك . .

لا تهمل هذه الوَمَضات التي تُواتيك وأنت تقرأ .. فإنها مفاتيح كنوز جليلة .. !!

عندما تبلغ عبارة ، تمسّ روحك مَسَّ الكهرباء ، وتحس

فيها شيئاً يستوقفك ويبهرك ، فَنحِّ الكتاب قليلًا ، وأصْغِ لما توحيه إليك ، وفكِّر فيها. فإنها ستفتح بصيرتك على عالَم من الأفكار جديد..

وهذه مزية القراءة..

فنحن لا نقرأ لنزيد معلوماتنا ، وننمي معارفنا فحسب ، بل نقرأ ، لأن القراءة تلهمنا ، وتُطِلّ بنا على أفكار عذراء تنتظرنا لنكشفها ونضيفها إلى تراث الفكر الإنساني..

وكأيٍّ من مخترَع ، أوحَى به لمخترعه ، مثل هذه العبارات النابضة..

وكم من روائع فكرية ألهمها كاتبوها ، حين استجاشت حماستَهم العقلية عبارة مضيئة قرأوها ، أو حركت رصيدهم الفني ، لفتة من لفتات الفكر الخلَّاق..!!

كأنَّ هذه العبارة ، أو هذه اللفتة ، «عصا المايسترو» لا تكاد تتحرك. حتى ينطلق العازفون في عزف لحنهم المحفوظ..!!

إن في عقلك الباطن ، كثيرًا من الرُّؤى والتجارب ، تنتظر عارضاً يسيراً يدفع بها إلى وعيك.. قد يكون هذا العارض كلمة تسمعها ، أو مشهداً تراه ، أو عبارة تستوقفك في كتاب..

فلا تقرأ ، وأنت غافل ساهٍ.. بل طالع في يقظة ، وتفتُّح ، ومتابعة.. وهيىء بصيرتك لتتلقى ما تفيئه الكلمة المسطورة من حِكمة وإلهام.

وإذا قرأت ، ففكِّر..

لقد ضرب الله للحقيقة مثلًا – أولئك الذين حُرِموا نعمة الفقه ، والتفكير.. فقال تعالى ؛ «جَعلنا لهم سمعاً ، وأبصاراً ، وأفئدة ، فما أغنَى عنهم سمعُهم ، ولا أبصارِهم. ولا أفئدتُهم من شيء».. ! !

فَعِش مفكراً...

لقد تعودنا أن نُطلق وصف المفكر على أولئك الذين يُحوِّلون المجهول إلى معلوم ، والغموض إلى وضوح.. الذين يقدمون إلينا عقل الحياة.. ! !

وهذا حق..

ولكن من الحق أيضاً ، أنك تستطيع أن تكون واحداً من هؤلاء حتى لو لم تؤلِّف وتكتب..

وتستطيع أن تغنم من التفكير ، وتظفر من مزاياه بما يرفعك – مهما يكن حظك منه – إلى مستوى « إنسان مفكر » . .

ذلك أن مزية التفكير أنه يؤكد وجودك الخاص ، ويهبك وجهة نظر خاصة تجاه الحياة ، وقضاياها ..

فإذا نَمَتْ وجهات نظرك هذه إلى حَدٍّ يدعو لبروزها ، والتعبير عنها ، وجدتَ نفسك مَسوقاً لأداء هذه المهمة فتكتب . أو تتحدث .

وفي أي مستوى من مستويات البلاغ كنت ؛ فأنت مفكر : ما دمت قد فكرت فعلًا . وكوَّنتَ لنفسك بنفسك وجهة نظر جديدة ..

إن «سقراط» لم يؤلف كتباً .. ومع هذا . فهو في الصف الأول دوماً . والمكان الأعلى بين مفكري البشرية كلها .. ! !

لماذا وهو لم يؤلف كتاباً .. ؟؟

لأنه عاش مفكراً ، وعَكَس على الحياة صورة تفكيره .. وبذلك استطاع أن يؤلف مكان الكتب جيلًا من الفلاسفة لا يزال الفكر الإنساني وسيظل يقبل على موائده مفتوح الشهية .. ! !

و «جمال الدين الأفغاني» لم يؤلف كتباً – عدا رسائل يسيرة محدودة .. ومع هذا فقد ملأ الدنيا . وشغل الناس .. ! !

ولم يكن ينزل في بلد ميت . ويقضي تحت سمائه بضعة

أشهر. حتى تقوم في هذا البلد ثورة.. أو يسقط عرش.. ويُكتَب تاريخ... ! !

لم يكن يصنع أكثر من أن يدير خواطره الذكية على مشاكل الناس، والدنيا.. يقرأ، ويفكر، ويقرر.. ثم يجلس إلى حفنات من مريديه. يتحدث إليهم. ويُودِع قلوبهم شجاعته. وعقولهم حكمته.

وهم بدورهم يفكرون.. ويقررون.. وتنتقل العدوى النبيلة الطيبة شيئاً فشيئاً. حتى تتحول إلى قدر يبلغ أمره..

و «توم بين» حين نزل أرض الولايات المتحدة، وهي يومئذٍ مستعمرات بريطانية، أتاها جائعاً عُرياناً، مُزوداً بوصية إلى أحد سكانها الأثرياء، ليجد له عملًا يعيش من كَفافِه.. فإذا هو بعد هبوطه الأرض الجديدة بثلاثة أعوام؛ لا غير، يُشعِل فيها ثورة الاستقلال التي حررتها إلى الأبد..

أيٌّ سر كان معه..؟؟

هذا الفقير المعدِم العاطل.. ! !

لقد قرأ كثيراً، وفكر كثيراً، وكانت أفكاره تنمو داخل نفسه حتى جاء ميقاتُ مِيلادها، وتهيأت لها ظروف كبيرة جليلة، فخرجت كبيرة جليلة.. !.!

وهناك بين الناس المستعبدين المضطهدين ، جلَسَ وكَتبَ بضع صفحات أسماها « الفهم » أو « حَصافة » لخصها وجهة نظره التي كَوَّنَها تفكير طويل ، وأعانت عليها قراءات كثيرة .. وقرأ سكان الولايات جميعاً هذه الصفحات ؛ فإذا هم ينطلقون كالإعصار . وإذا النار المقدسة تتأجج ، وراية الحرية تخفق ..

ويرتل الناس كلمات « بين » وأفكاره في كل مكان – في البيوت .. في الشوارع .. في المدارس .. في الميدان .. تحت ضربات المعركة .. وفي مراكز تموين القوات المحاربة .. الصِّبْية والشبان ، والكهول .. ! ! !

فكِّر إذن ، وفكِّر دائماً ، وحوِّل عقلك في كل اتجاه ؛ فإنك لا تدري أي عملاق رابض تحت ضلوعك .. فكِّر ، لا لتكون « سقراطاً » ، أو « توم بين » أو « الأفغاني » وإن كان من الممكن أن تكُونه ..

بل فكر لأنك إنسان ، ومن ضرورات إنسانيتك ، أن تكون مفكراً ، وأن تكون لك وجهة نظرك ، تجاه عالمك ، وتجاه كل قضايا الحياة ..

ولكن ..

– فكِّر في غير غرور – ...

ليس هناك أحد ، فيلسوفاً كان أو عبقرياً ، يملك وحده الحقيقة ويعرف وحده جميع الصواب .

إن الناس لم يُختصروا في واحد .. والحقيقة لم تَحبِس نفسها داخل دماغ .. ! ! !

كل فكر يرى الحقيقة من جانب ، ويكشف منها عن جزء ..

وكل تفكير مهما يكن شامخاً ، فليس سوى شمعة في « شمعدان » .

بل « شمعدانات » كثيرة ، ترسل معاً ، الضوء الذي يعين على رؤية الحق شيئاً فشيئاً ..

فهما يفتح الله لك من رحمة وحكمة . لا تدع الغرور يستحْوِذ عليك – إن الغرور عزاء تقدمه الطبيعة لصغار النفوس ، فلا تكن صغير النفس .. ! !

واذكر أن آفة كل تفكير سديد ، هو الغرور الذي يأخذ ضحاياه بعيداً عن الصواب ، ويعزلهم دون أن يدروا عن مجال المعرفة والفهم .

لقد كان شعار العالم الرياضي الكبير .. « لاجرانج » .. هذه هذه الكلمة الباهرة – « لا أعرف » .. ! !

و «نيوتن»، وأنت تعرف من نيوتن.. كان يقول:

«إني أتراءى لنفسي، كما لو كنت غلاماً يلهو على شاطىء البحر وأسلّي نفسي بين الحين والحين بالعثور على حصاة أكثر مَلاسَة أو صَدَفة أكثر جمالًا.. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامي دون أن أعرف عنه شيئاً.»!!

ففكر حين تفكر؛ دون أن تتخلى عن فضيلة التواضع، ودون أن يأخذك الغرور بعيداً عن حقيقة نفسك..

* * *

وإذا فكرت في حصافة وسداد؛ وجدت تفكيرك هذا يُصدر قراراته تباعاً في كل موقف؛ وفي كل واقعة.. ووجدته يكوِّن لك فلسفتك التي تقتنع بها؛ وعقيدتك التي تؤمن بها؛ وآراءك التي تدافع عنها..

وستقول في اعتزاز: هذا رأيي.. وهذه عقيدتي..

حسن هذا؛ فلا بد أن يكون لك رأي، ولا بد من أن يكون لك اقتناع تؤدي واجباتك حسب مقتضياته..

لكن اذكر دائماً؛ أن رأيك، أو اقتناعك ليس هو الحق كله؛ لأن واحداً بمفرده لا يستطيع أن يعرف الحق كله..

إن رأيك في أعلى مستويات صدقه وحِذقِه، يمثل وجهاً من وجوه الحقيقة.. وهو - إذا صادف الصواب - تفسير صحيح للمسألة التي يعالجها، لكنه ليس التفسير الأوحد، ولا التفسير النهائي..

ضع في يقينك، أنه لا أحد يصيب كل الصواب.. ولا أحد يخطىء كل الخطأ..

ومن ثَمَّ، فالحقيقة لا يملكها عقل واحد.. وإنما تُهدى إليها جميع العقول، العاملة في سبيل الوصول إليها..

والإنسان الرشيد، هو الذي يسعى لرؤية الأشياء كما هي، لا كما يريدها.

وكل هذا يقتضي أن ترفض التعصب.

فإذا اقتنعت بقضيةٍ ما، فليكن اقتناعك ثمرة الفهم...

لقد انتهت تلك العهود التي كان شعارها «لكي تفهم، يجب أن تؤمن».. وجاءت عصور، شعارها.. «لكي تؤمن، يجب أن تفهم»..

فكل إيمانٍ لك، يجب أن يكون ثمرةَ فهم، وتفكير، واستقصاء..

وما دام سيكون كذلك ، فجدير به أن يظل على ولاء واحترام للقوة التي أنجبته وأثمرته – وهو العقل.. أجل – ما دام إيماننا ثمرة العقل والتفكير ، فأوّل واجباته ، أن يظلّ مستعدًا لسماع كلمة العقل والتفكير.. !

إن الذين يتعصبون ، هم الذين يؤمنون إيماناً أعمى.. إيمانَ وراثة ، أو عدوى ، أو تقليد...

وهم يتعصبون لما عندهم ، لأن التخلّي عنه يتطلب منهم جهداً عقلياً ، هم أعجز عن أن يقدروا عليه..

ويحسب المتعصبون أنهم أقوياء الإيمان ، بيد أنهم واهمون ، لأن الإيمان القوي الرشيد يحمي نفسه بالتسامح والفهم ، بينما يبحث الإيمان الضعيف المهلهل عن سناد من التعصب والجهل يحمي به بناءه المتداعي..

إننا في عصر يستمد من عمليات المعرفة ، حقائقه ، ومذاهبه. والمعرفة ترفض التعصب رفضاً مطلقاً ؛ لأن غاية المعرفة ، الوصول إلى ما هو حقيقي..

والطريقة الوحيدة لمعرفة ما هو حقيقي ، اشتراك جميع العارفين في الكشف عنه.. وهذا يتطلب أن تُطرح جميع مقدماته وقضاياه في حلبة الجدل ، وفي مجال النقاش والفحص ، ويقتضي ألا

تحوط وجهة نظرك بتقديس خاص، يذود الآخرين عن مناقشتها... فقيام فكرة عظمى، في وجه فكرة عظمى نظيرها، هو ما تريده الإنسانية، وما يمليه الرشد..

ولنذكر أن التقدم الإنساني، كان سيُحقق أضعاف انتصاراته هذه، بمجهود أدنى، وضحايا أقل.. لو أن الناس تعودوا من عهد بعيد أن يفكروا في غير هوى، ويؤمنوا في غير تعصب.

ولنذكر أن أفضل مكاسبنا الحضارية، يتمثل في النمو الخلقي الذي يضع التسامح مكان التعصب. والفهم مكان المغالطة، ونُشْدان الحقيقة مكان سيادة الهوى..

* * *

نَحِّ التعصب دائماً عن عقلك وقلبك..

ولا تقتنع بالأشياء التي لنفسك إليها هوى.. ثم تذهب باحثاً عن البراهين التي تثبت صحتها..

بل ابدأ بالبراهين أولًا.. ودعها هي تهدِك إلى النتائج القويمة، والأحكام السليمة.

لا تكن كالقاضي التركي القديم، الذي كان يحكم على المتهم بالإعدام. ثم يقول وهو يفتُل شاربه! «والآن نناقش الشهود». !!

ناقش الشهود أولًا .. استعرض البراهين ، والمقدمات ، والشواهد .. وتأملها . واقرأ معظم إن لم يكن جميع وجهات النظر التي أُبديت في الموضوع .. ثم اِختر في أناةٍ ، وبغير تحيز ، رأيك أنت . واقتناعك أنت ..

فإذا اقتنعت بشيءٍ ما ، فلا تُعطِ اقتناعك صفة الخلود ..

فلا مكان اليوم للأحكام النهائية ..

العلم يكشف كل آن جديداً . ولا يفتأ يعلمنا أن الجمود انقراض وأن التعصب جهالة . فكن مهيأً دوماً للسير في موكب الحقيقة الجديدة .

لا تكن من الذين يقولون : إمَّا .. وإمَّا .. هؤلاء الذين يحسبون أن الشيء إما أبيض . وإما أسود .. ولا ألوان أخرى هناك ..

كلا .. هناك «إمَّا» الثالثة .. وهي تتكرر إلى ما لا نهاية ..

فابحث وراء هذا الفيض من الاحتمالات ، ولا تطحن نفسك بين شِقَّيْ رَحَى «إمَّا .. وإمَّا» .. ! !

ليس معنى هذا أن تقضي عمرك تائهاً بلا مرفأ .. وليس معناه أن تعتزل الحركة الراجحة في تيار الحقيقة والصدق ..

إنما معناه أن تبلغ هذه الغاية بجهد البصير ، لا بتواكُلِ الأعمى.. وأن تحتفظ باستقلالك الفكري. حتى إذا بزغَتْ من بين الآراء المتفاعلة حقيقة جاء ميعادها ، سِرتَ تحت رايتها مع السائرين على بصيرة وهُدًى..

وتجنُّبك التعصب للفكرة ، يعني ترك التعصب لصاحبها..

ولكي تختار آراءك اختيار الراشدين الأحرار. سيكون لك حق مناقشة الآخرين.

ومهما يكن هؤلاء الآخرون ، فلا تتلق منهم « الأحكام الجاهزة » بغير أن تمر في أنبوبة الاختبار الخاصة بك ، وهو عقلك..

تعلَّم من جميع المعلمين.. ولكن تعود أن تلقاهم في أفكارهم لقاء الند القدير. لا لقاء التابع الضرير..

ادرس آراءهم وناقشها.. فإذا اقتنعت بها فخذ مكانك إلى جوارهم ، وارفع رايتك إلى جوار راياتهم – وستكون آنئذٍ سائراً وَفق رأيك الذي وافق آراءهم.. !!

أجل.. ستكون سائراً وفق رأيك أنت ، وإن كانوا هم الذين دلُّوك عليه ، وهدوك إليه...

ذلك أنك لم تقبله مغمض العين . بل أدرت عليه خواطرك ، وقلَّبتَ فيه وجوه رأيك ، وعانيتَ اكتشاف ما ينطوي عليه من صدق . وتركت عليه طابَعك . .

وهذا كله يجعلك صاحب حق في أن تقول : هذا رأيي . .

وهذا مزية التفكير ، والاختيار . .

إنهما يعلنان سيادتك ، ويُحررانك من عوامل التبعية والخضوع .

* * *

فإذا قرأت في غير خضوع . .

وفكرت في غير غرور . .

واقتنعت في غير تعصب . .

وأراد اقتناعك هذا أن يعبر عن نفسه بكلمات ، فقلها بقوة وإبانة .

انطق بما تقتنع به في غير فأفأة ، وفي غير هروب . .

* - واجه الدنيا بكلمتك ، ولا تقل : مَن أنا . . ؟ ؟

فمعظم ما في عالمنا من حقائق ، ومبادىء ، إنما بدأت بكلمات قالها أفراد .

كل مبدأ عام، يؤمن به الناس اليوم - إنما كان دعوة رجل واحد.

وكل طريق عام تمضي عليه أجيال البشر، إنما اكتشفه فرد، أو أفراد لا يزيدون عنك - إن زادوا - إلا بما بذلَتْ عقولهم من جهد، وما تحلَّتْ به إرادتهم من شجاعة..!

فهات كلمتك، ولا تخجل، فلعلها حقيقة جديدة ينتظرها التقدم الإنساني، وقد جاء موعدها.

لا تحقِرنَّ من تفكيرك السديد شيئاً، فإنك لا تدري ما ينطوي عليه من عَطاء..

إن الرجل الذي قال «الأرض تدور حول الشمس» لم يكن في حسابه يوم قال هذا، شيء مما ترتب على كشفه فيما بعد من فُتوح ومعجزات..

والرجل الذي حاول أن يصطنع لنفسه جناحين يطير بهما منذ قرون بعيدة، ولما سقط قال: «سيفعلها القادمون بعدي»..!!

لم يدرِ أنه بهذه الكلمات العابرة والمحاولة الساذجة إنما يصدر القرار الذي سيمهره العلم - فيما بعد - بتوقيعه..!!

هل تعرف ماذا فعل الرسل، وماذا فعل كل الرواد الذين

صاغوا مصير الإنسان..؟؟

لا شيء سوى أن قالوا كلمتهم، ووقفوا بجانبها..

فقل كلمتك.. إن الحياة تنتظرها..!!

لا تحسب أنك جئت إلى العالم متأخراً.. أو أن الحياة الإنسانية قد سَوَّتْ مَشاكِلَها.. وأتمَّتْ أُمورها، ومن ثَمَّ لم تعد بحاجة إلى من يقول أو يفكر أو يعمل..!

قل كلمتك في أيسر الأمور، وأخطرها..

قلها. فإن تك خطأ، صححتَ خطأك.. وإن تك صواباً لساعدت الآخرين على الاقتراب من الحق..!!

وإن تك مما لا يتفق والسائد المألوف، فقلها أيضاً..

سيتهمك الناس بالتمرد..! أليس كذلك..؟؟

ألا فاعلم أنه لم يمر بأرض الناس هذه، عظيم مبدع إلا بدأ في أعينهم متمرداً؛ ثم انتهى إماماً ورائداً...!

انطق بما يدور في خلدك، فلو كبَتَ كل إنسان في نفسه ما يراه حقاً لفسدت الأرض وانقرضت الحياة..

إن بين يدَيْ ثورات الحرية والحق في كل زمان – كلماتٍ هتَفتْ بها، ولولاها ما قامت هذه الثورات...

وبين يَديْ كل الإصلاحات الشاهقة ، كلماتٍ دعَتْ إليها ، ولولاها ، ما كانت هذه الإصلاحات...

وقُوَى الظلام لا تطمع في شيء أكثر من إسكات الكلمة المضيئة .

إن أعداء « محمد » لم يكونوا يريدون منه سوى السكوت . .

وأعداء « المسيح » لم يكونوا يريدون منه سوى السكوت..

وجميع الذين علَّمونا ، وأيقظونا ، وكشفوا مجاهل حياتنا ، رفضوا أن يقايضوا على حقهم في القول ، بكل ما في الدنيا من كنوز ، وتيجان . ! !

حقاً إنه « في البدء كان الكلمة » وستبقى الكلمة أبداً ، الرائد والدليل.. ! ! !

وإن ولاء الحياة للكلمة . ليفوق كل ولاء .

انظر .. كم من سكان الكرة الأرضية اليوم وقبل اليوم يعرف اسم الملك أو الحاكم الذي كان يحكم « أثينا » أيام أفلاطون.؟

إنها قلة لا تذكر... ولكنْ تسعة أعشار سكان الكرة الأرضية يحفظون اسم « افلاطون » حتى الأطفال في المدارس.. !

كم واحد من العالمين ، يذكرون أو يعرفون اسم القيصر

الذي كان يحكم روسيا أيام «تولستوي»..؟

إنها قلة ضَحْلَة..

أما الذين يعرفون تولُستويْ، ويقرءون له.. فمئات ملايين تنادي مئات ملايين..!!

هذه عظمة الفكر.. وعظمة الكلمة..

فقل كلمتك إذا كنت من المفكرين والكتاب..

وقلها إذا كنت من غير المفكرين والكتّاب..

لا تكن من الذين يخافون أن يقولوا كلمتهم، وينتظرون أن يسمعوها من غيرهم..

* * *

ولكن اذكر أنني أقول لك: قل كلمتك.. ولَستُ أقول: افرِضْ كلمتك.. فالطريقة التي تقول بها كلمتك؛ وتَعْرِض بها فكرك، لا تقل أهمية عما في كلمتك من حق وقيمة..

هناك أناس يتكلمون، كأنهم آلهة..!!

ويعرضون آراءهم وأفكارهم. وكأنهم يقولون: «أمَرْنَا بما هو آت»..!!

لا تكن من هؤلاء أبداً.. ولا تخاطب غيرك من فوق منصة

الأستاذية..

وخير غرض تتوخَّاه بكلمتك أن تزيد بها عدد الأحرار، لا عدد العبيد..

وذلك يقتضي:

أن تقولها.. لا أن تفرضها..

وأن تحاول بها الإقناع.. لا الإكراه..

والهداية.. لا السيطرة..

وعندئذٍ قلها بصوت راسخ.. فإن الحياة تنتظر سماعها..!!

الوصية الثامنة

تقبّل وجودك، وطوّره..

واختر حياتك، وعشها..

وابق إلى النهاية حاملاً راياتك...!!

وُلد لأحد الحكماء الأقدمين وَلَدٌ. فبكَى..

قيلَ له: ما يبكيك..؟

قالْ: الآن مات..؟

حِكمة مناسبة لكي نبدأ بها حديثنا هذا..!!

فنحن حقاً يصبح الموت قدرنا المحتوم منذ اللحظة التي يتلقانا فيها المهد.. أي أن كلًّا منا يجيء الحياة ومعه بطاقة.. مكتوب في أعلاها، «وُلد». ومكتوب في أسفلها. «مات»..!!!

بيد أن رحمة الله وحكمته، تحجبان عنا الكلمة الأخيرة، لتتم بهجتنا بالحياة، ولنظل في تفاؤل يمنحنا حوافزَ الحياة..!!

أما ذلك الفيلسوف، فقد قرأ الكلمتين معاً حين بشَّروه بوليده فبكى. وقال: الآن مات..!

لأنه ما دام قد وجد. فهو حتماً سيفقد..!!

وأنا أحب أن أتصور القصة في وجهها الآخر..

أتصور الحكيم يضحك..

فإذا سُئل ، لماذا يضحك..؟

أجاب : الآن وُلد..

لست أعني الطفل طبعاً.. إنما أعني الفارس الذي يتضمنه الطفل.. والوجود الضخم الذي يمثله هذا الوليد. .

إنه لشيء مُبهج ، ومُحيِّر معاً ، أن نُبصر ميلاد طفل في ظل هذا الشعور وهذا التفكير..

لقد أُتيح لي ذلك أكثر من مرة.. وكنت كلما أهَلَّ الوليد صارخاً ضحِكْت..

لا تحسب أني بهذا أنتحل صفة الحكماء.. ! !

ترى ما الذي كان يضحكني.؟؟

كنت أنظر إلى قطعة اللحم الحمراء التي لا تكاد تملأ رَاحتَيِ القابلة.

وأقول لنفسي : هنا ، مُغامر جديد جاء يجرب حظه..! !

وإنه لَيصرُخ. ليخبر الدنيا بقدومه ، ولتفسح له مكاناً سريعاً كأنما ليس لديه وقت للانتظار..! !

وأتأمل مشهده ، وهو يضطرم في حركة وعنفوان. يركُلُ بساقيه ويُلوِّحُ بيديه. فأكاد أقول له. صبراً يا أخانا ، فالعالم

في مكانه لن يَريم ، والأرض ساكنة لن ترحل .. صبراً وسيجيء دورك .. ! !

* * *

الحقيقة أن كل ولادة ، حادث عظيم .. وأن كل مولود ، حياة هائلة تقمصت جسداً لتلعب دورها عن طريقه.

كل ولادة ، وكل مولود لهما هذا الشأن ، خاصة حين نستعرض الأفذاذ الأعلام الذين اختارتهم الأقدار من بين الأكواخ المعدمة .. وتلقتهم الحياة يوم وُلدوا في مُهود خشنة من ورق العشب ، أو مِزَقِ الأسمال البالية .. ! !

أجل ، عندما نستعرض الحشد الجليل من رُسُل الله ، وقادة الأمم ، والمبشرين بالحق والخير ، وعباقرة الفكر ، والفن ، والعلم .. ونرى الأكثرين منهم تختارهم العناية من بيوت فقيرة ، لا تقع عليها العين في زحام الحياة - نقول : حقاً إن لكل ولادة شأواً ، ولكل مولود نبأً .. ! !

فمن يدري كُنْهَ القوة الكامنة في هذه القطعة الملساء من اللحم ..؟ ومن يدري أي دور هائل سيؤديه هذا الوليد .؟ !

ولكن لنبدأ من البداية ..

قلنا إن الحكيم بكى لميلاد ابنه ، وقال : الآن مات . .

وقلنا : إن هذا سر الحياة.. كل مَن يفد إليها يوماً ، يرحل عنها في يوم آخر..

كلنا نعلم هذه الحقيقة ، فهل حملَنا هذا اليقين على كُره الحياة..؟؟

هل حملَنا يقيننا بأن الموت مصير كل حي. على أن نكُفَّ عن طلب البنين والبنات ، والفرح بميلادهم ، وبحياتهم ، أعظم ما يكون الفرح والابتهاج..؟؟

كلا ، وإننا لنحب الحياة.. ونحب أن يكون لنا فيها نسل ، مع علمنا بالمصير..

وإذا كنا نتقبَّل مبدأ الحياة ونحن نعرف نهايتها.. ، فيجب أن نتقبل نوعها.. على أي وجه يكون..

نحن لا نجيء الدنيا في ظروف واحدة..

فهناك الغِنَى ، والفقر ، والصحة ، والمرض ، والتقدم ، والتخلف..

ولكل منا مهد يتلقاه ، ويصوغ أوليات وجوده. وخامات مصيره – حسب ظروف البيئة ، والإمكانات المحيطة بهذا المهد..

وإذا تصورنا الحياة سِباقاً ، فنحن لا نبدأ السِباق من نقطة

واحدة.. وهذا أحد الألغاز الكبرى التي تنطوي عليها الحياة. ! !

ولكن إذا كنا لا نبدأها من نقطة واحدة – كما يبدو – فإن التعويض سر آخر عجيب من أسرار حياتنا.. ! !

وما أكثر الذين تقتضي ظروف حياتهم أن يتخلفوا، أو يسيروا في بطء، بيد أن قوى هادرة تتحرك داخل أنفسهم، حين تضغط إرادتهم على محرك هذه القوى فإذا هم سبّاقون لا يُدرَك لهم شأو، ولا تُنال لهم خُطىً.. ! !

فنقطة البدء إذن لا تهم في تقرير المصير، بقدر ما تهم طريقة السير..

فمهما تكن ظروف نشأتك فعليك أن تتقبل وجودك.

هذه هي الخطوة الأولى الحكيمة في السباق الذي تربح فيه حياتك.

* * *

تقبَّل وجودك في طمأنينة وغبطة، كائناً ما يكون هذا الوجود..

حين تَقع في يدك قارورة ثمينة، بها ماء آسِن، فأنت لا تحطمها بسبب ما فيها، وإنما تُفْرِغها، وتغسلها جيداً، وتملؤها

بالعطر الذي تريد..

ووجودنا ، في التشبيه البسيط ، قارورة ثمينة..

كل وجود حي له قيمته ، وله نَفاسَتُه..

وأنت تتسلم وجودك ، مملوءًا بما لا حيلة لك فيه من ميراث الأهلين ، ورواسب الخَلْق..

وعلى أي صفة يكون ، فهووجودك.. تذهب يمينًا أوشمالًا . . تتخذ لك نفقاً في الأرض أو سُلَّماً في السماء ، لا مفرَّ لك منه ولا مهرب..!!

. هذا إذا تصورت وجودك تصوراً مغلوطاً متشائماً ، فحسبته غرماً لا غُنم فيه..

على أن الأمر ليس كذلك أبداً. فكل وجود مهما تكن ظروف نشوئه ، ينطوي على قُوًى باهرة ومقادير عظمى..

ولقد ضربت لك مثلًا – أساتذة البشرية الذين تسلموا وجوداً في مستوى عادي.. وجوداً محوطاً بصعابٍ قهروها واتخذوا منها مزية ومِعراجاً..!

كما أن هناك كثيرين تسلموا وجوداً مَحوطاً بالنعم والمباهج ، وكافة الظروف المساعدة ، ومع هذا فقد تحطموا على أول

الطريق ، ولم يصلوا بوجودهم ذاك إلى شيء - أي شيء..

إن الدفّة بأيدينا ، والرُّبّان القدير ، يحسن التفاهم مع الريح ، ومع الموج ؛ فيتم رحلته في عافية..

تقبّل وجودك إذن ، وشمِّر ساعدك ؛ لتصنع من خامات هذا الوجود حياة إنسان عظيم وكريم..

نحن نُعطَى الوجود ، ونأخذ الحياة..

وساعةُ الميلاد ، تدق معلنة وجودنا.. لكنَّ ساعةَ الرشد ، هي التي تدق مُعلنة بدء حياتنا..

فإذا كنت على حظ من الرشاد كبير ، فستصنع من وجودك الخام ، حياة نابضة ، نامية ، باهرة..

فَسِر بوجودك في رفق واتئاد ، مُيمماً وجهك شطر المصايرِ العظيمة ، في حفاوة ورشد..

ومهما تبذل من جهد ، وتتفصَّد من عرق ، وتسهر مع نجوم الليل فسيطلع لك فجر منبلج ، يبشر بمقدم الأيام المنتصرة - أيام حياتك الوارفة التالدة... وعند الصباح يحمد القوى السُّرى.. !

مَثل الوجود ، والحياة.. كمثل الصخر والتمثال.. عندما ترى مَثّالًا ينحت من حجر أسداً.. فانظر كيف حوَّل الحجر

الأغلف إلى أسَد...!!

إن الحجر هو الوجود...

والتمثال هو الحياة...

وكما تحول الحجر في يد المثال الحاذق إلى أسد عجيب.. كذلك أنت عليك أن تحول وجودك الخام إلى حياة ذكية..

واعلم أن وجودك ينطوي على كل مقومات الصورة الباهرة التي تريد أن تجيء حياتك وفقها..

فالنموذج الذي يريده كل منا لنفسه، رابض داخل نفسه. محفورة معالمه على جدران وجوده. ينتظر أن يملأ أخاديده بالحكمة وبالعزيمة فإذا النموذج ينهض قائماً...!!

عندما سأل «سقراط» أباه. وكان هذا الأب مثّالًا بارعاً. كيف يصنع بإزميله المعجزات..؟؟

أجابه قائلًا: «عندما أريد أن أنحت من الصخر أسداً. فإني أُبصر الأسد كامِناً في الحجر. وأحسّ به رابضاً هناك تحت السطح ينتظرني أن أطلق سراحه..»...!!!

وعندما سأل أمه عن سر مهارتها في توليد الحوامل من الأمهات.؟ أجابته قائلة:

- «إنني في الحق لا أصنع شيئاً، سوى أن أعاون الطفل المستكنَّ في الرحم. على البزوغ، والانطلاق»..!!

إن حياة «سقراط» بما فيها من حكمة، وما لها من شموخ، مدينة بجلالها الباهر لهاتين الإجابتين اللتين سمعهما من أمه وأبيه.

ولقد أخبرَ فيما بعد، أنه لم يصنع لكي يكتشف نفسه، ثم لكي يساعد الآخرين على اكتشاف أنفسهم، وحيواتهم، أكثر من هذا الذي كان يصنعه أبوه وأمه..

ونحن جميعاً.. أنت وأنا. وكل إنسان حي، لا يصنع، لكي يحول وجوده إلى حياة، أكثر من هذا - رؤية الأسد الكامن في الحجر، ومساعدته على الانطلاق..

فتأمل دائماً هذه الحكمة الجليلة التي قالها لسقراط أبوه..

- «إنني أرى الأسد كامناً في الحجر؛ وأُحِسُّ به رابضاً هناك، ينتظرني كي أطلق سراحه» فحياتك كامنة في وجودك، كُمون الأسد في الحجَر..

وهي تنتظرك لتعاونها على الانطلاق.

وهذا يتطلب منك فطنة وبصيرة..

فالنحّات الذي لا يبصر في الحجر سوى صلابة الصخر،

يَضرب ولا يُبالي..

أما الذي يُبصر في الحجر أسداً رابضاً، فإنه يحرك أزميله في مهارة، ويضرب الحجر في ذكاء..!!!

إنه يتحامَى أي خطأ قد يشوه جمال الأسد الكامن هناك..

ومن ثم - فهو يحرك يده في لمسَاتِ فنان، لا ضرباتِ هرقل..!!

وهو يكابد بعقله، لا بعضلاته..

وبذكائه، لا بعواطفه..

وهكذا شأنك مع حياتك..

تصور النموذج الذي تريده، وفي أية سن كنت من سِني عمرك، فأنت قادر على أن تولد من جديد، وتكون لك الحياة التي تريدها..

إن فيك خيراً كثيراً، واستعداداً هائلًا للتفوق.. أَبصِرْه جيداً.. ثم احمل أزميلك - وانحت لنفسك الحياة التي تريدها في حِذق، وأناة، وإصرار، وتهلُّل..!!

* * *

وإذا أدركت أنك تصوغ حياتك، فلتكن من الذكاء

بحيث لا تقضي عمرك في صياغة حياة لغيرك..

أجل، كن من الذكاء بحيث لا يغتالك التقليد.

كن نفسَك، وعش حياتك.

إن لكل منا نموذجه الكامن فيه، وواجبه أن يطلق سراحه، ويعاونه على الظهور والتألق...

فإذا كنتَ نفسك، وعشتَ حياتك، فإن كل جهودك ستتجه نحو نموذجك، تُجلِّي قسماته، وتُنمِّي حسناته، وتؤكد استمراره وانتصاره..!!

أما إذا ذهبت تقلد الآخرين، وتبدد جهودك في تقليدهم فأنت بهذا، إنما تعاون نموذجهم هم، على انطلاق أكثر، وانتشار أكبر..!

أنت بهذا تهمل فضائلك ومزاياك، وتتركها للذبول والجفاف، بينما ترعرع مزايا غيرك، التي قد لا تكون في المستوى العالي لمزاياك التي أهملتها..!

إننا نقلد، لأننا نجهل طبيعة الحياة، ولأننا قبل هذا كافرون بأنفسنا وبقيمتنا...

إن الحياة تريد التنوع، وتباركه، وتعمل به، وله..

انظر..

إن الزرع مختلفٌ ألوانه.. والثمار لها صنوف شتى.. بل إن النوع الواحد من الفاكهة الواحدة – كالمانجو مثلًا، أو البرتقال أو العنب، لَيتنوَّع، ويتشكل في نماذج كثيرة..

وهذه البلايين من الناس الذين وُلدوا، ويولدون، من بدء الخليقة إلى الأبد.. يؤكدون قانون التنوع بما بينهم من تفاوت مبين..!!

بل حتى حين يصور الله سبحانه توأمين في صورة واحدة أو شديدة التماثل، فكأنه بهذا أيضاً يظهر قيمة التنوع..

كأنه يقول لنا: انظروا.. إني قادر على أن أخلقكم جميعاً متشابهين كهذه التوائم.. ولكني لا أريد.. لأن التنوع بركة، وفي التنوع حكمة..!!

أجل – إن التنوع بركة وخير. وإنه لمن أهم مصادر الثراء للحياة الإنسانية..

ولو أن حياة البشر سارت على نَسقٍ واحد، لانقرضت وبادت..

فلماذا تقلد غيرك إذن، وقد جئت الحياة لتكون نموذجاً

جديداً من نماذجها..؟؟

لماذا جِيءَ بك إلى الحياة إذن، إذا كنت ستكون ظِلًّا لغيرك..؟

أتظن الحياة معرض ظِلال. أو مسرحَ عرائس..؟؟!

لا – إن الحياة جِدّ، وتجديد.. وأنت هنا لتحيا حياتك وتعطي ثمرتك..

وهذا يقتضيك أن ترفض التقليد..

هناك فارق بين أن تقلِّد غيرك، وأن تنقل إلى نفسك فضائل هذا الغير..

فأنت بالتقليد تهدم نفسك، وأنت بالتطعيم، ترعاها وتزكِّيها..

حين تنقل إلى حياتك المزايا التي تنقصها، تكون كمن يعوض فقر دمه، بقدر محدود من حقن الدم.. وهو عمل صالح ونافع..

لكن حين تذهب لتقلِّد غيرك تقليد القِرَدَة، تكون كمن يريد أن يستصفي آخر قطرة من دمه تجري في عروقه. لكي يملأ هذه العروق بدم آخر من فصيلة أخرى.. ربما تكون في النظام الطبقي للدماء أعلى شأناً وأنبل عائلة..«!»

ألستَ تضحك من حماقة الذي يفعل هذا الصنيع. وترثي

لنكبته..؟؟

ألا فاضحك تماماً من حماقة من يقضي عمره غريباً عن حياته، يقلد هذا، ويقلد ذاك – تاركًا وجوده وحياته ومزاياه. بغير عائل، وبلا مُعين..!!

إنه لينطبق عليه المثل الذي يقول:

«ذهَبَ يطلب قرناً، فعاد، وصوف ظهره مجزوز..»!!

فآمِن أنت بنفسك، واحترم وجودك، واختر حياتك..

لا تقلِّد غيرك، فتقضي العمر تائهاً عن نفسك. غائباً عن حقيقتك ضالًا عن مصيرك..

هل تحب أن تقضي عمرك فوق «سقَّالة» معلقة بين الأنقاض.؟؟

إنك تفعل هذا تماماً، حين تنفق أيامك في تقليد هذا وتقليد ذاك. إن الحياة تزيدك أنت..

بخيرك وشرك.. بقوتك وضعفك.. بجواهرك، وخزَفِك..

لا تَخفْ أن تكون نفسك أبداً.. مهما يبدُ لكَ من غرابة مزاياك، وجِدَّة رُؤاك.. فلعلك بذرة جديدة تنطوي على نمط جديد من أنماط الحياة..!!

لا تدع إعجابك بأحد . كائنًا ما كان – يصرفك عن اكتشاف نفسك واستنباط المواهب الكامنة فيك . .

ماذا كان يصيب الحياة ، لو قلد كل إنسان إنسانًا آخر يعجبه . . ؟ ؟

ماذا كان يصيبها ، لو قلد « محمد » رسول الله عمه أبا طالب . ونام عن الجديد الذي كان يحمله بين طواياه ، والذي هَدَى به الدنيا من ضلال . . ؟؟

ماذا لو قلَّد « بوذا » أباه ، وعاش للملك والجاه وحدهما ، ولم يخرج بعظمة روحه على السائد المألوف في بيئته . . ؟ !

ماذا لو قلَّد « وشنطن » أساطين أُسرته ، وضاع حياته على أن يلتزم نهجهم – كِبارَ تجار ومزارعين – لا غير . .

ماذا لو فعل ، ولم يستجب لوديعة الحياة عنده ، وهي أن يقود أمته إلى الحرية والاستقلال ، ويصوغ معها أول وثيقة سياسية لحقوق الانسان : ؟ ؟

ماذا لو استمع « لينين » لوصية أستاذه الذي حاول إغراءه باحتذائه قائلا له : إنك خُلِقتَ لتكون أستاذ جامعة ممتاز . .

ماذا لو قلده ، ولم يخرج خبئه العظيم فيحرر أكبر أسواق الرقيق في الأرض من حكم القياصرة الجائم ، ويقود قومه في عزم

عظيم باهر إلى مطالع الضوء ، ومشارف الغد . . ؟ !

ماذا لو اكتفى « غاندي » بتقليد والده . . فعاش محاميا ناجحًا ، وكبيرًا نابها في قومه – يلتزم الحق أيضًا . ولكن ينفض يديه من متاعب الجهاد العام الكبير في سبيل تحرير وطنه اللاحِب العريض .

ماذا لو فعل ، ولم يقل لصوت التاريخ المنطلق من داخل نفسه : لَبَّيْك . . ؟ !

ماذا كانت الحياة البشرية ، ستخسر ، لو أن هؤلاء جميعًا ، وأمثالهم ، راحوا ضحية التقليد ، ولم يخرجوا خبء أنفسهم المعطية ، وحياتهم الجديدة الثرية . ؟ !

ثم انظر الصورة من وجهها الآخر ، وقل :

ماذا كانت الحياة ستدرك من خير ورحمة ، لو لم يقلد هتلر ، نابليون . . ؟ !

ولو لم يقلد نابليون ، جنكيز خان ؟ ! !

ولو لم يقلد جنكيز خان ، الأسكندر الأكبر؟ ! !

حقًا إن التقليد خيبة ، وكارثة . . وإنه لشر ما ينزل إنسان بنفسه من ضر ودمار . .

احلم بدل أن تقلد . .

وانسج حياتك من الأحَلام الخلاَّقة العظيمة . .

احلم كثيرًا ، فالذين لا يحلمون ، لا يعيشون . .

احلم الأحلام الخلاقة الذكية التي تستمد صدقها ، وقوة إفصاحها عن نفسها ، من مواثيق الحياة ، ومن روح العصر . . ! !

حاول أن تكتشف مشيئة عصرك في أعلى مراحل تطورها والْتحِم بها التحامًا وثيقا . واحلم عندئذ ، فستأتي أحلامك باهرة وقادرة ، وستتحول إلى قرارات وحياة . .

وساعتئذ، ستكون واحدًا من الذين يقدمون للحياة أنفسهم التي صاغوها وأنجبوها . .

وهذا خير ما تنتظره منك الحياة – أن تقدم لها حياة جديدة تنسجها أنت على غرارٍ اخترته ، ولا تنقلها عن حياة أخرى بطريقة تشبه « شفَّ » الصُّوَر . . ! !

إن ميزة أعاظم الرواد الذين مروا بالحياة الإنسانية تتمثل في أنهم قدموا للحياة نماذج جديدة مبتكرة – هي حيَواتُهم التي صنعوها وأحسنوا صنعها .

لم تمنعهم آراء الآخرين عن أن يختاروا بأنفسهم لأنفسهم

ما يرونه أمثلَ وأهدَى . . .

ولم يصدهم احتمال السقوط ؛ عن توقُّل المرتفعات والقمم . .

ولم يصرفهم احتمال السخرية ؛ عن التشبث بمواقفهم العادلة

ولو تخلى هؤلاء عن أدوارهم الكبرى . .

ولو عاشوا حياتهم من الباطن . . باطن الآخرين الذين كان يمكن أن يؤثروا فيهم . . .

لو جعلوا من أنفسهم طبعات مكررة لغيرهم ، ولم يَشُقّوا لأنفسهم وللحياة طرائق جديدة . . .

لو فعلوا ذلك ، لخسروا أنفسهم ، ولخسرت الحياة كل هذا الجديد السديد الذي جاءوا به ، فَنمّوا به ثراءها، ووسعوا به نطاقها .

اخترْ حياتك من خامات جديدة ما استطعت .

واترك على الأرض بعد عمر طويل ، آثار قدَمي إنسان جديد مرَّ بها ، وأضاف إليها . !

لا تخف أن تجيءَ حياتك بجديد لم يألفه الناس الذين معك وحولك . .

فمن يدري . . ؟ لعل هذا الجديد على موعد مع تطور الحياة .

كم من تقاليد كانت راسخة وطيدة تصبّ حيوات الناس في قوالبها ، فيخرجون منها صورا متشابهة . وذات يوم بَدا لفردٍ واحد أن يخرج بحياته من ربقتها فكان هذا إيذانًا بانتهاء عهدها ، وإهلال أنماط جديدة بشَّر بها تَمسُّكُ هذا الواحد باختيار حياتهُ ، وبممارسة حقوقه . . ! !

* * *

إن امتلاكك أرضا ، أو دارا ، أو ثروة . . إنما هو امتلاك نِسبي . . .

أما المِلكية الحقة المطلقة ، فهي مِلكية النفس . . .

أجل . . . إن خير ثرواتك وأزكاها ، وأبقاها . هي نفسك ؛ وحياتك . . .

فلتكن سيد نفسك ، وسيد حياتك . . . .

واعلم أن حرية روحك كفيلة بأن تبوّئك بين الأحياء العاملين مكانا عاليا – إذا عرفت كيف تستخدمها في توكيد ذاتك ، واختيارحياتك ، وإذا جعلت القانون الذي تضعه بنفسك لنفسك ، مظهرًا صادقًا لإرادتك ، وإذا هيأت نفسك للانتفاع بالفرص العادلة التي تسنح لك ، والتي تناديك ، لتصوغ منها نموذجك الخاص . . هذا النموذج الذي يتمثل في النهاية إنسانًا جديدًا ،

وإنسانًا حقًا . .

* * *

اختر حياتك إذن سالكًا الطريق الذي تهيئه لك قُدْراتك . .

واكتشف مزاياك أنت . ثم نَمِّهَا مستعينًا على ذلك برؤية الآخرين الذين حققوا تفوقًا كبيرًا . وصاغوا بأنفسهم حياة جليلة .

لكن لا تجاوز الرؤية إلى التلاشي . .

لا تجاوز الإعجاب الحافز ، إلى التقليد الضرير . .

وَوَفْق ظروفك وطاقاتك . .

وَفق استعدادك ، وذكائك . .

وَفق طموحك العاقل العادل . .

وَفق رؤاك الذكية الباسلة . . تقدم وضع حياتك في غير نُكوص وفي غير تهور . . ! !

إن الذي ينتحر بأن يعرض نفسه لما لا طاقة لها به من ثلوج قمة عالية ، يَهْرَؤُه صقيعها ، كالذي ينتحر بإلقاء نفسه في ظلمات ئر عميقة . .

إذا حلقتَ طائرا في الطبقات البعيدة من الفضاء ، بحيث تفقد التنفس والهواء ؛ فلن تذهب شهيد السمو ، بل ضحية

الغرور والنزق . . ! !

وأيضاً ، إذا ترديت في الحفرة الفاغرة ، فلن يكون لك عذر أنك لم تبصرها ، لأن الله جعل عينيك في مقدمة رأسك ، ولم يجعلها من وراء . . ! !

ماذا يعني هذا الذي أقول . . ؟ ؟

معناه ألا تركب الشطط في تطوير وجودك وإرباء حياتك . .

وألا تستسلم للعجز والهزيمة .

ولكنْ سِر في شجاعة ، وحكمة . .

ولا تكترث وأنت تختار حياتك بمخالفة الناس . ما دمت لا تخرج على القيم الإنسانية الثابتة والعليا . . وما دمت لا تفعل ذلك لمجرد الرغبة في المخالفة والرغبة في الظهور الساذَج .

لا تكترث بمخالفتهم ، إذا ألحَّ عليك من ذات نفسك جديد من الأنماط يريد أن يظهر . . فأنت كما قلت لك – قبلا – نمَط مستقل فريد ، مهمتك أن تعطي ثمرتك ، وتخرج جوهرك . . وتتعاون مع الآخرين من غير أن تتلاشى ، وتكمل تيار الحياة ، من غير أن تقدم نفسك طعمة لأمواجه . .

اختر حياتك عند أعلى مستويات التفوق الممكن والكمال

الميسور . .

ثم عِشْها كما هي . حياتك أنت . .

لا تضق بما يعتورها من ضعف ومن خطأ . ولا يحملنك ذلك على مغادرتها ومقاطعتها . .

عشها . . عشها كلها . . عشها جميعا بحفاوة وشجاعة ، وإصرار على أن تكون سيد هذه « المملكة » الطيبة المتواضعة التي هي حياتك . .

وهكذا تعيش حاملا رايتك ، ولا تتلجلج بها يمينك فتسقط على الأرض . .

* * *

إذا أخذتَ لحياتك نهجها ، وصممت لها فلسفتها التي ستهدي خُطاها على طول الطريق . . فقد نسجتَ الراية التي ستكون رمزا لحياتك كدولة ذات سيادة . . فاحمل رايتك إذن في ولاء وعزم . . وابق إلى النهاية حاملا لها . .

ليس معنى هذا أن تجمد ، وتقف تطورك النفسي والفكري . . فنحن نغير رقعة الراية ، إذ لوَّحتْهَا الشمس ، أو أوْهَنَتْها الرياح . .

جدد رايتك أيضا ، ودائما ، ما دامت تمثل السمة المميزة

لحياتك النامية ، وفلسفتك الذكية الصاعدة .

ودَعْها تخفق في جوٍّ السماء ، مُعلِنة أن هنا وجودًا قد تطور إلى حياة . . وحياة صاغها صاحبها في أحسن تقويم . . !

دعها تتلألأ فوق كشف إنساني جديد يزيد البشرية ثراء وغِنىً . .

كشفٍ يتمثل في إنسان جديد . . هو أنت بما بذلت من جهد في تطوير وجودك ، واكتشاف حياتك . . ! ! !



الوَصِيّة التاسِعَة

وَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الله، فَإِنَّه حَقّ..
وَضَعْ يَدَكَ في يَدِهِ، فإنَّه نِعْمَ النَّصِير..!!

يمر تفكرنا الديني في هذه العصور، بمرحلة تتَّسم بروح الانقلاب .

على أنني ، إذْ أحدثك الآن عن الله ، لا أريد أن أحتكم إلى التفكير الديني وحده . .

فالله سبحانه وتعالى ، ليس موضوعَ الدين فحسب ، بل هو موضوع العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، وموضوع الحياة كلها . .

كل الكائنات العليا في هذا الكون الكبير ، تدفعها قوى باطنة إلى استشراف الغيب ، وتتبع الخيوط التي تهدي إلى السر الأكبر . . سر القوة العليا التي خلقت عالمنا الفذ ، وألهمته سننه ، وقوانينه ، ونظامه المحكم الوثيق . .

كل إنسان تناديه هذه الأسرار . .

فنا من يسير إليها مُتتبعًا خُطَى العلماء . .

ومنا من يسير متتبعًا خطى المرسلين والأنبياء . .

ومنا من يرى العلم والدين ، آيتين من آيات الله . يعلم بهما

خلقه . ويهيئهم بوساطتهما لكشف المجهول ، ومَشاهِد الحقيقة جَهْرة وعلانية . .

هناك إذن ، من يُؤْثِرون في هذه القضية التسليم والإذعان والإيمان التلقائي البسيط . .

وهناك من يُؤْثِرون البحث ، بما يتضمنه البحث من شك ، ومحاولة واحتكام إلى البراهين .

وكثيرًا ما نظن أن الفريق الثاني أقرب إلى الزيغ ، وأدنى إلى الضلال . .

وهذا خطأ كبير . .

وإنه ليعنيني أن أستهل معك الحديث عن الله بهذه الحقيقة . . حقيقة أنك في عصر مختلف . . عصر لا تستطيع فيه أن تؤمن حتى تفهم . . عصر وُكِلَ فيه إلى العقل وحده سلطة منح « جواز المرور » لكل معتقد ، ولكل إيمان . .

فهل تتعرض قضية الإيمان بالله للخطر ، بسبب تحكيم العقل . . ؟ ؟

أما أنا ، فأقول : لا . .

وعَبْرَ الصفحات المقبلة . سأتلمس الطريق إلى الله في ظل

العقل والبديهة . .

واعلم - إذا كنت ستمضي معي - أن الله مُباركٌ هذا النهج . فلا تخف أن تستعمل عقلك في البحث عنه .

فهو سبحانه ، حين دعا الناس إلى التعرف إليه - لم يقدم نفسه إليهم في ألغاز وأساطير . . بل قدم حقيقته عن طريق ما يشاهدون من آثاره ، ودعاهم أن يستعملوا عقولهم في الاهتداء إليه . .

فعليهم أنفسهم أن يكتشفوا وجوده . .

وسبيلهم لهذا - النظر ، والتدبّر ، وشحذ قوى العقل جميعا . انظر هذه الآيات . .

* « أو لم يسيروا في الأرض ، فينظروا . . »

* « قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق... »

* « من يرزقكم من السماء والأرض ، أمَّن يملك السمع ، والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يُدبِّر الأمر . . ؟ ؟ ؟ »

* « أمَّن جعل الأرض قَرارا ، ؟ وجعلَ خِلالها أنهارا ، ؟ وجعل لها رَواسِيَ ؟ وجعل بين البحريْن حاجزا . . ؟ ؟ ؟ »

* « أمَّن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذاتِ بهجة ، ما كان لكم أن تُنبتوا شجَرها .. ؟ »

* « أوَلم يروا أنا نأتي الأرض نَنْقُصُهَا من أطرافِها . . ؟ »

* « وترى الجبال تحسَبُها جامدة ، وهي تمر مَرَّ السحاب ، صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيْ . . . »

* « إن في خلق السماوات والأرض ، واختلافِ الليل والنهار ، لآياتٍ لأولي الألباب . . »

* « واختلافِ ألسنتكم ، وألوانكم . . . »

* * *

ما معنى هذه التوجيهات للناس ؟ . .

معناه أن الإيمان تجربة ، قبل أن يكون إذعانا . . ونظر عقلي : قبل أن يكون تلقِّيا . . ! !

وهي دعوة صريحة إلى البحث عن الحقيقة العليا من خلال ملاحظة الكون ملاحظة عقلية ؛ وعلمية .

ولقد ذكرت في كتابي « إنه الإنسان » كيف وكَلَ الله للإنسان مهمة اكتشاف إيمانه ببارئه حتى يجيْ إيمانه وليد إحساسه وحاجته ؛ ووسائله .

وكيف ترك أبا الأنبياء ، وأبا الأديان « إبرهيم » عليه السلام يعاني بَواكير التجربة وحده . .

ولو شاء الله ، لبادَأَهُ الوحي ، لكنه تركه يبحث ؛ ويتأمل .

* « فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبًا ، قال هذا ربي . . فلما أفَلَ ، قال : لا أحب الآفلين . .

* « فلما رأى القمر بازغًا ، قال هذا ربي . . فلما أفَلَ قال لَئِنْ لم يهدني ربي ، لأكون من القوم الضالين . .

* « فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي . هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريءٌ مما تشركون . . إني وجَّهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . . »

هذا « أبو الأنبياء » يسلك إلى الله طريق العقل ، والنظر ، والتأمل ، مقلبًا وجهه في السماء ؛ ممعنا بحواسه في اجتلاء الغيب ، متوسلا في نطاق نسبي ؛ بنفس الطريقة التي يسلكها العلم اليوم ؛ وهي وضع الفروض ، ثم مناقشتها وفحصها . .

أجل . .من غير أن يكون يومذاك علم بالمفهوم الحديث للعلم – ترك الله رائد رسله وأنبيائه يسير وفق قواعد العلم في البحث عنه وكشف وجوده . .

فالعلم يقوم على الفروض ، لأنها توجه العمليات التي تكشف عن الحقيقة . .

ولكن الفروض كما يقول – جون ديوي – « ليس هناك حدود لمداها ولا لعمقها ، فمنها فروض ذات مجال محدود تكنيكي . ومنها فروض تبلغ من السَّعة ، اتساع الخبرة نفسها . . »

يفترض « إبراهيم » أن الكوكب ، هو الإله . . ويمضي مع هذا الفرض يحلله ، ويجربه ، حتى إذا سقط الافتراض بين يديه عاجزا عن إثبات الحقيقي الذي يسعى إليه ، عدل عنه إلى فرض آخر . . وهو القمر . . ثم إلى فرض آخر ، وهي الشمس لأنها أكبر ، وأكثر نفعًا . .

وإذْ يسقط هذا الفرض الأخير ، يكون اختبار آخر يُنَمِّي نفسه داخل نفسه ، فترى بصيرتُه ما لم ير بَصَرُه ، وهو اختبار عقلي أيضًا . . بيد أنه لا يعمل داخل نطاق محدود من العقل ؛ بل داخل العقل كله وينتهي إلى نتيجة تقنعه :

« ما دامت كل هذه القوى تختفي وتغيب . . والله لا يمكن إلا أن يكون كمالاً مطلقا . . إذن فهذه ليست هي الله . . والله من وراء ذلك كله محيط . .

« إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض » . . ! !

* * *

حاولِ إذن . أن تهتدي إلى الله بعقلك ؛ ولا تَخف الشك ؛ ولا تخش الخطأ . .

فالله يعلم مدى قصور العقل الإنساني ؛ ومع هذا فقد ندب العقل لاجتلائه والتعرف إليه . فلتحترم وسائل هذا العقل ؛ ولا تَضِقْ به إذا قال : كيف يكون ذلك . . ؟

ولماذا لا يكون كذلك . . ؟

لا تضق بما يلقاك من شك ، فالشك طريق اليقين .

وقديمًا سأل أبو الأنبياء إبراهيم ربه أن يريه كيف يُحْيِي الموتى . .

قال الله له : أوَ لم تؤمن . . ؟ ؟

قال : بلىَ . . ولكن ليطمئن قلبي . . ! !

والله سبحانه يخبرنا عن تلك الأزمات النفسية العاتية التي كانت تُلِمّ برسله أنفسهم ، فيقول سبحانه :

« حتى إذا استيئس الرسل ، وظنُّوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا » . .

تأمل جيدا هذه الآية « وظنوا أنهم قد كُذِبوا » . .

فإنها تمنحك أملا عريضًا باسمًا في عون الله حين تبحث عنه مهما تعتورك الشكوك ، وظنون النفس . .

ولقد دعا الرسول أصحابه ألا يعبأوا بما يصادف بعضهم من شك قائلا لهم : « هذا مَحْضُ الإيمان . . » ! !

فالشك . إنما ينبئ بوجود يقين ، يحاول اكتشاف نفسه . .

بل إن الشك كثيرا ما يُفجِّره زحام اليقين . . ! !

فدع عقلك ، يُنزل زورقه في البحار المجهولة ، وما دمت مخلصا في رغبة الوصول إلى الحق . . فإن يدًا خفية ، ستقوده وتحميه – هي يد الله . .

وإن مَرافئ كثيرة ، ستُومِضُ له بأنوارها الكاشفة . . هي ، مرافئ الله المبثوثة على شطآن المجهول . .

اقترب . . لاتخف . .

وتقدم . . لا تُجفِلْ . .

إن الله معنا . . . ! ! !

* * *

هناك رواسب كثيرة ، قد تسبب لك حيرة وقلقا ، كلما

حاولت أن تستشرف الله من نافذة العقل . .

بيد أنك قادر على تنحية تلك الحيرة إذا ناقشتَ هذه الرواسب الوجدانية ، وردَدْتها إلى أصولها ، وفحصت هويتها في ضوء التفكير السليم . .

وأول هذه الرواسب . راسب الطفولة . .

فحين كنت طفلا . سمعت عن الله أشياء كثيرة ، وعرفت الله بأذنيك . .

كنت تسمع نُعوتا لله ، تختلط فيها الحقيقة بالخرافة ، فلا تميز بينها ، بل يَلْقفها وجدانك الغضّ الساذج ، ويصوغ منها تصورُك الناشئ ، وخيالُك الطفل ، صورةً لله تستقر في وجدانك وذهنك . .

كانت هذه الصورة تستمِدّ معالمها مما يلقى إلى السمع إلقاء يجيْ سَدِيدًا مرة ، وغير سديد مرات ، حيث تقوم علاقتك بالله على الخوف والإذعان . .

بيد أنك لم تظلَّ طفلا . . فذات يوم كبرت ، ونما عقلك ، وربَتْ معارفك ، واشرأبَّتْ ثقافتك . ولم تعد الصورة القابعة في وجدانك عن الله كافية لإقناعك . . ! !

ومن ثم . يغشاك تيار من القلق الذهني . .

لقد تصورتَ الله في طفولتك : أشبه ما يكون بملك فخم عظيم :

وفهمتَ أن كل شيءٌ في الوجود تقع مسئوليته المباشرة على الله . .

فالمرض ، والفقر ، والنجاح ، والفشل . . حتى عثرة القدم في الطريق قدَر من الله ، وكَلِمةٌ سبقَتْ . .

وفهمتَ أن الله يتربص بك عند الموت ، فلا تكاد روحك تغادر جسدك حتى يتلقاها عذاب شديد . فزرعت في نفسك عقدة الخوف والفزع من الله – ومن الموت الذي هو لقاء الله . . ! !

فلما كبرت ، وطالعت ، وتطلعت . أدرت خواطرك على تراث الطفولة هذا ، فأنكرت أكثره . .

فإذا كان الله كَمالاً مطلقا ، فلا يمكن إذن أن يكون هذا الملكَ الفخمَ المحفورة صورته على جدران نفسك . .

ولا يمكن أن يكون مسئولا عن هذه الشرور التي تملأ الأرض . .

ولا يمكن أن يكون لقاؤه على هذه الصورة من القسوة مهما تكن خطايانا ، لأنه أعلم بنا من أنفسنا . .

وأيضًا لا يمكن أن يكون القدَر الذي تلقتْ طفولتك بل وشبابك صورة مشوشة عنه – لا يمكن أن يكون كما يقال عنه، وراء كل حركة، لكل فرد، في كل زمان ومكان..

وهنا يتنازعك موقفان عقليان..

* موقف يدعوك إلى نبذ الصورة كلها دون أن تبحث عن بديلها الحق.. وهكذا، وبمنتهى السهولة تصدر حكمك عن الله – بأنه لا وجود له..!!!

وفي نشوة مخيولة من نشوات الغرور، تقول لنفسك. لقد تفوقتُ على الضعف والتأخر، اللذين يسميهما الناس «إيمانا» ولقد حللت المشكلة التي حيرت العالمين..«!!!»

* وموقف آخر، يدعوك إلى فحص الصورة كلها، وإخضاع ميراث الطفولة للفحص والتعلية – والتفكير من جديد في قضية الإيمان..

وهذه الطريقة الثانية، هي اللائقة بإنسان. حتى حين يخطئ أو تبطئ عنه الهداية، فلا يَصِلُ إلى شيء..

* * *

أما العامل الثاني من العوامل التي تجعل بيننا وبين الإيمان شُقَّةً، وشقاقا، فهو التقديس..

إن الإيمان تقديس لا ريب . .

وأنت في سن شبابك ، وبعد شبابك – تبرز شخصيتك مُحاوِلةً فرض نفسها ، وتوسيع نفوذها . . ويتململ عقلك ثم ينهض قائماً ، تدفعه غريزة قوية إلى أن يسأل ، ويناقش ، ويعقب ، ويعارض ، ويتبدى له التقديس نوعا من الذل والخضوع لا يطيقه . . ! !

* * *

وثمَّت عامل ثالث ، هو أننا تعودنا أن نسمع اسم الله مقرونا بالأمر والنهي . .

فكل دعوة إلى الفضائل ، وكل نهي عن الرذائل ، إنما نبَعَا – أول ما نَبعا – من الله . .

ونحن بني آدم عالم يموج بالشهوات مَوْجا . وكل قوة تحاول صدنا ، والحد في انطلاقات غرائزنا . لا تُقابَل منا بالارتياح على الأقل . .

وما دمنا نفهم أن الأخلاق والفضائل مصدرها الله . . أي أن الله هو الذي وضع الشكائم لنا ، فهو إذن المسئول عما نعانيه من تناقض وبيل يجتاح علاقاتنا بهذه الأخلاقيات . .

إذا استجبنا لها ، مزقتنا الشهوة المكبوتة . .

وإذا نكَصْنا عنها ، حطَّمنا عذاب الضمير ، والخوف من عذاب الله . .

* * *

وهناك عامل رابع يثبطنا عن الإيمان أيضًا . . ذلكم هو ارتباط الإيمان بالدين . .

فالدين وإن لم يكن الصوت الأوحد الداعي إلى الله ، إلا أنه أول الأصوات وأعلاها . .

وإذا كان العلم ، والفلسفة يمكن أن يدلاً على الله ، فدلالتهما ضِمنية . .

أما الدين فهذه وظيفته ، وموضوعه . وهو يكدح في هذا السبيل لا غير — سبيل الإيمان بالله ، والدعوة إليه . .

وإذْ قد تعرض الدين لأزمات كثيرة ، وتطفلت عليه كثرةٌ هائلة من الأكاذيب ؛ والخرافات . . فقد أُصيب الإيمان معه . وصار كثيرون من الذين يرفضون الدين ، يرفضون الإيمان أيضًا .

* * *

والعامل الأخير الذي أختتم به عوامل التثبيط عن الإيمان يتمثل في فتوح العلم الهائلة ، وغزوات العقل الظافرة . .

لقد بهَر العلم الناس بما كشف من أسرار ، وبما فَضَّ من مجهول ، وبما اكتشف من قوانين . .

أشبَع العلم كثيرا من حاجة الناس إلى استِكْناهِ القوة الخافية التي تحرك النظام الكوني العظيم . . .

وبينما كانوا يردّون إلى عالمَ الغيب كل ما يعجزون عن تفسيره – تقدم العلم ، فأخذ في وجدانهم مكان الغيب . . ! !

واتسعت الحياة اتساعا لم يكن في الحسبان . . ولم يعد لدَى أحد من سعة البال وسعة الوقت ما يسمح له بالاستغراق في عبادة ، أو في تأمل ما وراء الطبيعة المحسوسة . . فمشاكل العيش تكاد تأخذهم حتى عن أنفسهم . .

* * *

والآن ، عليك أن تناقش هذه المثبطات التي سردناها ، ليخلُص لك طريق الإيمان لاحبًا مستقيما . .

فتقدَّم . . إن إنكار الله ليس من اليسر بالصورة التي تتوهمها ، والتي يؤكدها لك أولئك الذين يزعمون أنهم عرَفوا كل شيءٍ ، وأحاطوا بكل شيءٍ عِلمًا . . ! !

فإذا بدأت بالعامل الأول ، تبين لك أن النموذج الذي تكوَّن

في طفولتك لله ليس هو الله . . بل والصورة التي تتخيلها لله في شبابك ، أو في شيخوختك لن تكون هي الله . .

إن الله هو « رب العالمين » . . وكفى . .

إن كونًا عجيبًا يسير بهذه الدِّقَّة المتناهية في الحكمة والاتِّساق لا يمكن أن يكون وراءه الصُّدفة ، ولا الخَوَاء . .

لا بدَّ من قوة حكيمة مدبِّرة . .

هذه القوة هي – « الله رب العالمين » . .

ما لونه . . ما حجمه . . ما نشأته . . ما هويَّتُه . . ؟ ؟ ! !

ذاك أمَر يعجز عن إدراكه جميع أجهزة « تحقيق الشخصية » في العالم « ! ! »

وإصرارك على أن تعرف الله بهذا الأسلوب الساذج يدل على أن طفولتك لا تزال تقودك . .

لقد سئل رسول الله عليه السلام : كيف رأيت ربك . . ؟

فأجاب قائلا : « نور أنَّى أراه » . . ! !

ولقد وضع السلف الصالح معيارًا سديدًا فقالوا : « كُلُّ ما خطر ببالِك ، فالله بخلاف ذلك » . .

فاعرف الله ، كبيرًا ، لا تدركه الأبصار . .

رحيما ، لا يقسو . .

حكيما ، لا يضِلُّ ولا ينسى . .

أعطى كل شيءٌ خلقه ، وقانون وجوده . . وبقوانين الوجود هذه ، وسنن الحياة والكون – تسير الأمور من غير أن يتحمل الله مسئولية مباشرة عن تفاصيلها . .

فالله – مثلا – سخَّر الأرض والبحار والأنهار للناس جميعا . وجعل منها رزقَهم ، وعليها معاشهم . وجعلها تسير وَفْق قوانين ثابتة تُخرِج بها الأرض زرعها ، وتمنح بها الأنهار ماءها ، وتحمل بها البحار فُلْكَها . . ! ! !

فإذا اقتسم الناس الأرض قِسمةً جائرة ، وامتلك واحد ، آلاف الأفدنة ، وعاش آخرون على الثَّرى . .

وإذا تنافست الدول في امتلاك البحار ، والسيطرة على منافذها ، ويَغَى قويها على ضعيفها ، فالمسئول هم الناس الذين لم يُحسنوا تقبُّل نعمة الله . .

ولقاءُ الله خير على أية حال ، وإذن فالموت الذي يهيء لك هذا اللقاء ، لا يمكن أن يكون عذابًا وبيلا . .

فأقل مستويات الكمال لله ، لا بد أن تفوق أعلى مستويات خلقه في الكمال . .

ونحن نرى بين خلقه أناسًا تسامَوْا بالرحمة وبالفضل حتى إنهم ليحسنون إلى من يسيءُ إليهم ، ويعطون الرداء ، لمن حاول أن يأخذ منهم الثوب . . وتهون عليهم التضحية بكل عزيز في سبيل ألاَّ يبصروا عينًا تبكي بسببهم ، أو جَفْنًا يرتعش خوفا منهم . . ! !

أفيبلغ الناس الذين هم خلق الله ، هذا المستوى من الحنان والرحمة . . ثم لا يكون الله أعلى شأنا ، وأوفرَ حَنانا ، وأغدقَ رحمة . : ؟ ؟

لقد وقف الرسول ، وهو بَشر – يواجه يوم الفتح أعداءه الذين قاتلوه ، وأخرجوه من داره وبلده ، ومثَّلوا في وحشية بجثة عمه ، وعذبوا أهله وأصحابه ، وجوّعوهم – وأنزلوا بهم كل صنوف البغي والاضطهاد . .

وقف تِجاهَم يوم الفتح ، ونَواصِيهمْ كلها بيده ، فما زاد على أن حَنَى رأسه شكرا لله ، ثم رفعه ليقول للناس : « اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » بل مضى يبالغ في تكريمهم حتى ينسيهم أنهم مهزومون . . ! !

أفيفعل هذا بشَر ، ثم تتوقع أنت أن الله هناك وراء قبرك ،

يترقب مجيْ روحك ، لِيُصْلِيَها عذابا وسعيرا . . ؟ ؟ ! !

لقد خوَّفنا الدين حقا ، وكان مضطرا أن يفعل حتى يكبح الجموح ، وينَهْنِهَ من ضراوة البغي . .

أما رحمة الله ، فهي الوعد الحق وهي الكلمة الأخيرة . .

فاستقبِل الله بهذا الفهم الذي هو حق . لا عزَاء . .

عندئذ ترى الله بهجة الدنيا والآخرة . .

وآنئذ لن يغيب عنك ، ولن تبحث عنه ؛ لأنك ستجده في كل ما حولك من حياة – في الزهرة الباسمة . . في النَّبْتِ الطالع . . في شماع الشمس . . في قطرات الغيث . . في السماء وفي الأرض .

ينتظرك على شوق . . ويقول في حديثه القدسي :

« من مَشى إليَّ شبرًا . مشيتُ إليه ذِراعا . . ومن مشَى إلي ذراعا مشيت إليه باعًا . . ومن أتاني يمشي . أتيته هرْولَة . . » . ! !

ستعرفه كما ينبغي أن يُعرَف – رحيما . لا حدود لرحمته . وَدُودًا لا منتهى لمودته . . بارًّا . لا يَغِيض بِرُّه . . هو الحنَّان . الجواد . القويّ . المتعال . . ! ! !

وستأنَسُ به روحك . وعقلك . . وستصبح من فَرْط النشوة . .

أهذا هو الله . . ؟ ؟ تبارَكَ الله إذن . . ولْتتقدَّس أسماؤه . .

ولْيَتَبارك في عُلاه . . ! ! !

وسَتُحِسُّ أنك تسير في صحبة رَبٍّ كبير – يبارك قوّتك . ويرحم ضعفك . . يشجعك على فضائلك ، ويشفق عليك من رذائلك . .

وفي كل حال ، تطلُّ يمينه المباركة مبسوطة إليك . تدعوك للنهوض ، وتناديك : أقبِل ؛ ولا تخف ، إنك آمن . . انهض . ولا تتردَّدْ ، إني معك . .

لا يُرَوِّعْكَ ضعف . فقوتي سَندٌ لك . . .

لا يَحْزُنْكَ تخلُّفك ، فقد تسبق العرجاء . .

لا تَقنط من رحمتي ، فرحمتي وسِعَتْ كل شيْ . . ! ! !

* * *

وإذا ناقشتَ العامل الثاني من عوامل التثبيط ، وهو ضِيقك بالتقديس ، ورغبتك في أن يتحرك وجودك في جهاته الأربع ؛ ويمارس عقلك حقه في اختيار أحكامه . . فاعلم أن هذا ، هو ما يريده الله منك . .

وإذا كنتَ تمتلئْ بهجة وحُبورًا ، يوم ترى أطفالك الصغار يتصرفون كأنهم رجال . .

فاعلم أن الله سبحانه يرضى ويُسَرُّ ، حين يرى عباده ، يتصرفون كقِدِّيسين . .

ولقد دعانا لهذا فقال ؛ « كونوا ربَّانِيِّين » . .

ويخبرنا الدين كله . أن الله أمر الملائكة المقربين بالسجود لآدم الذي هو رمز النوع الإنساني وعنوانه . .

الملائكة الذين يسجدون لله . . يسجدون بأمر الله للإنسان . . ! !

أيُّ مغزىً باهر لهذا التكريم . . ؟ !

إن تقديسك الله . لا يعني أنك نُطفة عمياء . .

وإذا كان بعض الذين أَنْحَلُوا أنفسهم أوضاعا دينية خاصة عَبْرَ التاريخ ، قد غالوا في تقديس أنفسهم ، فالله ليس كذلك . . ولا كذلك رسُله الصادقون ، وعباده الصالحون . .

* * *

اما ثالث المثبطات ، وهو ضِيقنا بالأمر والنهي . . واعتبار الله مسئولا عن قيودنا الأخلاقية . .

فاعلم – أولا – أن الحياة الإنسانية حين وَعَتْ نفسها ، أيقنت أنها لا تستطيع الاستمرار بلا أخلاق . .

فهي – مثَلا – لكي تنمو وتطَّرِد ، لا بد أن تمجد العدل ،

وتضع الظلم . . تمجد الأمانة ، وتسقط الخيانة . . تحترم الصدق ، وتمتهن الكذب . . وتقاوم القتل ، والسرقة ، والفاحشة . .

والقانون الخلقي ، ضرورة الحياة .

والكفر بالله ، لا يُخْلي من تبعات هذا القانون ومسئولياته . .

وفي بعض البيئات التي نَحَّت الإيمان بالله جانبا ، لا يزال القانون الأخلاقي سائدا . . والأوامر والنواهي على أشدِّها . .

ذلك أن القانون الخلقي ، يفرض نفسه في كل زمان ومكان . على المؤمنين بالله ، وعلى غير المؤمنين . .

فإنكار وجود الله ، لن ينجيك من العقاب الذي سينزله بك مجتمعك إذا خنت ، أو سرقت ، أو انتهكت حرمة ثابتة .

و– ثانيا – فالقانون الأخلاقي ، سواء جاء من الله . أم من الناس . فهو حماية لك أنت ، وسعادة لك أنت – ومصدره جدير بشكرك ، خَلِيقٌ بطاعتك . .

لأنه لو لم يكن القتل – مثلا – محظورا ، لأصبحتْ حياتك في مهب كل يدٍ طائشة . .

ولو لم تكن السرقة حراما ، لصار معاشك نهبا لكل يد خالِسَةٍ أو ناهبة . .

ولو لم تكن العفة والفضيلة يرعاها الناس ، لاضطربت حياتك وحياتهم اضطرابا كبيرا . .

وهكذا ، يمثل القانون الأخلاقي ، بكل فضائله التي أجمعت البشرية على احترامها – يمثل سِياجًا يحميك ، ويزود عنك . .

فإذا كان مِن الله ، أومن الناس ، فهو نعمة كبرى – وبالشكر تبقى النعم وتدوم .

وكل تزمُّت من الناس في فهم أخلاقياتهم ، وكل تنطُّع وجمود يصاحبان تطبيق قانونهم الأخلاقي – إنما تقع مسئوليته عليهم لا على الأخلاق ، ولا على مصدر الأخلاق .

* * *

فإذا واجهت المثبِّط الأخير ، وهو اختلاط الإيمان بالدين ، اختلاطًا عَرَّضهما معًا للتحريف ، والمبالغة ، والزيغ . وعرضك بالتالي لأن تضيق بالإيمان ، وبالدين . . . فإنك واجد الحقيقة تسارع إليك لتصحح لك الفهم ، وتكشف لك مزايا الإيمان والدين . .

لقد سبق الدين إلى الهتاف بوجود الله ، ودعوة الناس إلى الإيمان به ، كي يبلغوا بهذا الإيمان مستوىً لائقًا من الخير ورِفعة النفس . . .

ولكن الدين نفسه ابتُلي بطبعَاتٍ أساءت استغلاله ، كما ابتُليَ بإضافات وخرافات تسلَّلت إليه ، وأخذت مكانها بين شعائره ونصوصه ، كما ابتلي ثالثًا بسوء الفهم من الأجيال التي بَعُدَتِ الشُّقة بينها وبين عصور الرسالة الأولى ، سواء في ذلك المسيحية ، والإسلام ، والأديان الأخرى . .

لكن الذي يفهم حقيقة الدين ، ويَستجلي روحَه ولُبابَه ، لا يراه إلا خيرا . . وإلا يدًا طولى أسْدَت للبشرية في مراحل تطورها وتقدمها أجل الخدمات وأسماها . . ! !

أجل ، عندما نقترب من روح الدين ، لا من شكله الخارجي وحده – يَبْهَرُنا النسق الموضوعي لرسالته ودعوته . . ونرى فيه قوة حافزة أكثر ما يكون الحفز ، مُلهِمة أبدع ما يكون الإلهام . .

* فدعوته للإيمان بإله وأحد ، لا يحابي ، ولا يظلم – إنما هي تحرير الإنسان من أرباب الأرض الذين طالما ساموا الناس خَسْفًا ورهَقًا ؛ وملأوا حياتهم فسادا ؛ وبغيا . . وإعلانٌ لسيادة الرجل العادي . . .

* وهُتافه بخلود الروح ؛ أعظم تكريم للإنسان ، وأبهى تمجيد له . . إذ فحوَى هذا الخلود ، أن الإنسان ليس مخلوقا عاديا . . بل إن له في هذا الكون دَوْرًا مناسبًا لخلوده . . .

* وإعلان الدين أن الإنسان خليفة الله في الأرض ، ارتفاع بالإنسان إلى مستوى قريب من الإله ذاته ، وإرهاص بأن هذا الذي نفخ الله فيه من روحه ، سيذهب صاعدا حتى يبلغ في معراج الارتقاء مالا يخطر ببال . . ! !

أي تفاؤل بمصير الإنسان ، يفوق هذا التفاؤل . . ؟ ؟

وأي تمجيد له ، يُسَامِتُ هذا التمجيد . . . ؟ ؟

* ودعوة الدين إلى الإيمان بالغيب واحترامه ، تحطيم لِقوى الحجْر على المستقبل . ودفع بالعزم البشري إلى الأمام . وتشجيع على اقتحام المجهول وكشف ما وراءه من أسرار كبرى . .

أجل ، إن معنى الإيمان بالغيب ، أن وراء ما نشاهد ونُحس ، عوالم لا تنتهي أسرارها وعجائبها ، وعلينا أن نؤمن بهذا الغيب ، كواقعٍ موجود . . وهذا الإيمان يقتضي أن نحاول فَضَّ مغاليقه ، والسير نحوه واثقين . .

وكل نصر يحرزه العلم اليوم ، وكل فتح جديد يهمّ به ، لا يلقَى من الدين الحق إلا التشجيع ، والحضّ . .

* فإذا سار العلم مع « دَارْوِنْ » في رحلته ، محاولا اكتشاف أصل الإنسان ، ثم نادى بتطوير الإنسان من كائنات أدنى . .

فسيحمد الدين هذا الصنيع ، لأنه من قرون بعيدة أبلغَ الناسَ رغبة الله في أن يحاولوا بأنفسهم اكتشاف مبدأ نشأتهم ، ونشأة كل شيءٍ ، فقال القرآن في بعض آياته :

« قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بَدأَ الخلْق » . . ! !

* وإذا حاول العلم أن يغزو الفضاء ، ويتخذ سبيله إلى القمر مَهْدًا فسيجد الدين يباركه ويهيب به قائلا :

« الله الذي سخّر لكم السماوات والأرض ، وسخر لكم الشمس والقمر » . .

* وإذا أراد العلم أن يسعى لإطالة متوسط العمر الإنساني للفرد : بل إذا حاول أن يرد الموتى إلى الحياة . . ؟ فإن الدين الحق لن يقول له كفرت ، كما يحسب الجاهلون . . بل سيباركه كثيرًا ؛ لأن الدين مؤمن بخلود الإنسان ، وهو لا يرى الموت إلا قنطرة إلى حياة أخرى . وكما ننام ونستيقظ ، فنحن كذلك نموت ونُبعث ! ! .

أجل ، سيصفق الدين للعلم إذا ردَّ للموتى الحياة ، لأن رسولا من رسل الله فعل هذا ، فأخبرنا الدين أن المسيح أحيا الموتى بإذن الله . . ! ! !

* وإذا حاول العلم أن يبعث الحياة ، في المادة غير الحية . .

وهي محاولة تبدو عجيبة ، أشد العجب ، فإن الدين يشجعه ، ويقول له تقدم ، فإن إنسانًا بمفرده صنع هذا . .

ذلكم هو المسيح حيث يحكي القرآن الكريم عنه هذا فيقول :

– « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله » . . ! !

* * *

الدين في حقيقته ، قوة تدفعنا إلى الأمام . . وإذا وُجِدَ بين نصوص الدين – أي دين – نص لا يزكي أغراض التقدم الإنساني الرشيد ، فليس معناه أن الدين ضد التقدم – وإنما معناه أن هذا النص ، أو هذا الموقف ، موقوت بزمانه . .

والمتدين بحق هو الذي يدرك أن شعائر الدين لا تتمثل في شعائر دينه وحدها . . وإنما تتمثل مع هذا . أو قبل هذا في إدراك روح الدين . والعمل وَفق هذا الروح . .

وروح الدين كما قلنا ، تحقيقُ أقصى أغراض التقدم الإنساني وبلوغ الكمال الميسور للبشر في حياتهم ، وفي أنفسهم . .

وكل عمل صالح في هذا السبيل ، عبادة ، وصلاة . .

وإذا أخذتَ الدين وفهمتَه على هذه الصورة ، التي هي صورته الحقة ، فلن تحمّله أوْزارَ الأباطيل التي تطفّلتْ عليه ، وسترتفع في فؤادك كلمته ، وتتجلّ قيمته . . وبالتالي ، ترتفع كلمة الإيمان ، وتتجلى قيمة الإيمان . . ! !

* * *

إن الإيمان بالله في حقيقته يمثل أسمى آفاق التفكير الإنساني ، وأسمى حوافز التقدم والانطلاق .

والإيمان يقول للإنسان : « وأنَّ إلى ربك المنتهى » .

إلى ربنا المنتهى . . ؟ ؟ ؟

إذن فالله هناك – في أقصى الشوط الذي قُدِّرَ للبشرية أن تسيره . .

وإذن ، فلكي نبلغ هذا المنتهى ، علينا أن نقطعَ الطريق كلها مهما تكن طويلة ، ويابسة . .

ولكي نشاهد السر الأكبر ، وهو « الله » علينا أن نمر بأسرار كثيرة ، ونفضّها . ! !

فالسير إلى الله ، سير إلى كل الحقائق التي تنتظرنا لنفض مغاليقها ونكشف كُنهها .

من أجل هذا ، كان العلم في حقيقته دِينًا . .

وهذا العالم العاكِفُ على مُختَبره . ليس أدنى منزلة من العابد المَتَبتِّل في مِحْرَابه . . ! ! !

* * *

بانتهائنا من مناقشة هذه الرواسب التي تجعل الإيمان ثقيلا على النفس ، بعيدًا عن العقل ، نعود إلى العقل ذاته لنرى هل هو مع الإيمان بالله أو ضد الإيمان بالله . .

وأنت تعلم ، أن ثمَّت فارقا بين العقل ، والعلم . . غير أننا هنا نعني بالعقل – الحركة العقلية كلها بما فيها العلم نفسه . .

والآن نسأل : هل نفَى العقل وجود الله . . ؟ ؟

أنَا لا أكتب لك بحثًا فلسفيًا ، أو عظة دينية . . إنما نحاول معًا اجتلاء معالم الإيمان في أقرب نِقاطه إلى الوضوح واليُسْر . .

ونجيب على سؤالنا فنقول : إن العقل لا ينفيٍّ وجود الله ، . إذا أخذنا العقل بمفهومه الصحيح .

إن أحكام العلم تستمد صدقها من حواسنا . ومن التجربة العلمية التي نجريها في معاملنا .

والأحكام التي تجيئنا عن هذا الطريق ، تكون موضع يقيننا ،

ونسميها في إجلال . . المعرفة . .

وأهم مميزات هذه « المعرفة » أنها ضد الأحكام النهائية . .

تذكَّر هذا جيدا . .

فإذا جاءنا من يُصدر في قضية الإيمان حكما نهائيا فيقول : ليس هناك إله . ؛ فإن العلم نفسه ، يقول له . هذا غُرور . . ! ! لأن إصدار مثل هذا الحكم يتطلب أن تكون قد عرفتَ الحقيقة كلها . . وعرفت جميع المجهول الذي سيظل سكان هذا الكوكب ملايين السنين يكشفونه جزءا ، فجزءا . .

وسيقول له العلم أيضا – إننا نستمد صدق أحكامنا من التجربة . . والمعامل لم تشهد حتى اليوم تجربة مادية تنفي وجود الله . . ! !

فالمعرفة بمفهومها العلمي ، تتورع عن نفي وجود الله . .

لأنه إذا كان العقل لا يؤمن إلا بما يَثبتُ وجوده . . فواجبه ألا يجحد إلا ما يثبت نفيُه . .

فمتى أثبت العلمُ نفيَ الله . . ؟ ؟

إننا نحتكم إلى العلم بتفكيره التجريبي الواقعي . .

وبالطريقة التي أثبتَ بها حركة الأرض ، وتحوُّلَ المادة ،

عليه أن يثبت نفي وجود الله . .

وإذا لم يفعل ، فلا أقل من أن نحترم دوما ذلك الهاتف الأبدي الذي لا يفتأ منذ وجد الإنسان على الأرض ، يصيح بنا . هناك إلاه . . .

وهذا الهاتف نفسه ، حقيقة قادمة من العقل ومن المعرفة بأصدق ما للعقل وما للمعرفة من دلالة . .

فالعقل الإنساني ، ليس هذا الجزء الذي نفكر به ونبحث ، والذي يطل على الكون من نوافذ حواسنا الخمس . .

هذا جزء من عقلنا الإنساني لا غير – وثمة لهذا العقل مناطق أخرى تكشَّفتْ لبعض الناس الأفذاذ ، وبصُرُوا بها مالا تُبصر الكافّة . .

هناك مستويات أخرى للتجربة – غير هذا المستوى الذي وصَلْنا إليه والذي نباشره في معاملنا – وهي تعطي حَدْساً صادقا ، كثيراً ما كان بمثابة الإشارات الضوئية التي أضاءت لتجارب العلم طريقها . .

انظر . . . ! !

منذ ألف سنة كان هناك أفراد ، شارَفُوا هذه المستويات

الباطنة من التجربة العقلية ، فنادوا بحقائق عُدَّتْ في أعين معاصريهم خرافة ووهما . .

قال « أنَا كْسَاجُورَاس » إن القمر أرض فيها جبال ووديان ، وإن الشمس والكواكب ، أجرام نارية مُتكوّرة . . فنفاه أهل أثينا .

وبعد ألفين وأربعمائة عام اكتشفنا صدقه . . ! !

وفي ذلك الزمان البعيد أيضًا قال « دِيمقْرِيطِس » إن هذه الذرَّات ليست هباء . . ولكنها طاقات هائلة – وفي كل ذرة شمس كشمسنا هذه . .

وبدا في أعين الناس مُخرفا . . ولكنْ بعد ألفين وأربعمائة عام أيضًا اكتشف العلم صدقه . . . ترى بأي أسلوب أدرك هذان الرجلان ، هاتين الحقيقتين ؟ ؟ . .

بالحواسِّ الخمس . . ؟ ؟

إن الحواس الخمس ، لا تستطيع وحدها اكتشاف ما في الذرة من هول ، وطاقة . .

أم بالتجربة العلمية داخل المعمل . . ؟ ؟

لم تكن لهم يومئذ القدرة على تجربة المعمل . . ولم يثبت

أنهم قالوا ما قالوا على ضوء تجارب أجروها في معامل مَشيدَة . . ولو كانت تجربة علمية مُشاهدَة ، لما أنكرها الناس . واتهموا أصحابها بالإلحاد ، وطاردوهم خارج الديار . .

إذن هناك عيون أخرى للعقل تتفتح في بعض العقول المهيأة ، فتطالع المجهول ، كما يطالعه المعمل اليوم . .

وهناك إذن مستويات أخرى للتجربة الإنسانية لا تُتاحُ لكل الناس ، بيْد أنها تعطي أحكاما صادقة صِدق التجربة العلمية نفسها . . ! ! !

وعند هذه المستويات العالية من التجربة استطاع ناس منا ، أن يعايِنوا حقيقة الإيمان ، ويهتفوا بوجود الله . .

فلماذا لا نصدقهم . . ؟ ؟

ولماذا نحاول أن نقيس الله بنفس الموازين التي نقيس بها أنفسنا . .

لماذا نحاول قياس حرارة الشمس بـ « ترمومتر عادي » . . ؟ !

إن في حياة كل فردِ إنساني تجارب كثيرة يحسّ من خلالها وجود الله ، حتى لكأنه يراه . .

ولكنّ هذه التجارب العابرة ، والأحاسيس الخافتة ، تدور

في المستوى العادي لشعورنا وتفكيرنا . .

بين أن رَعِيلاً عظيما من البشَر عانوا التجربة في مستواها الأعلى ، وتحدَّثَ الله إليهم من خِلالها . .

أولئك هم المرسلون والأنبياء والهداة . .

فهل من حقنا أن نرفض تصديقهم ، وننتظر حتى نرى ما رأوا ، وحتى يتحدث الله إلينا مثلما تحدث إليهم . . ؟ ! !

إن أمورنا لا تسير على هذا النحو أبدًا . . .

فنحن لم نر الأشعة (تحت الحمراء) ، ومع هذا ، نؤمن بوجودها لأن أفراداً منا اكتشفوها وأخبرونا بوجودها . . . ! !

وأنت لم تفجِّر الذرّة . . . ولكنك تؤمن بكل أخبارها ، لأن أفرادًا من العلماء فجروها وأطلقوا طاقتها . . .

وأنت لا تحس أدنى إحساس أن الأرض تدور ، ومع ذلك تؤمن إيمانًا مطلقًا بدورانها ، لأن العلم قرر دورَانها . .

وأنت لم تر الزهرة ، وعطارد ، والمريخ . . بل ولا المجموعات الشمسية الأخرى التي تعتبر مجموعتنا الشمسية كلها بالنسبة إليها . برتقالة صغيرة . . . ومع هذا فأنت تؤمن بوجودها لأن غيرك ممن تثق بهم رآها من وراء عدسات المراصد . . .

وأنت لم تقس سرعة الضوء ، ومع هذا . تؤمن بأنه يسير بسرعة « ١٨٦٠٠٠ » ميل ، في الثانية الواحدة . . .

فلماذا تصدق كل ذلك ، وأنت لم تكتشف صدقه بنفسك ، إنما اكتشفه لك آخرون . . ؟ ؟

قد تقول : إن الأمر مختلف ، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه الأشياء إذا أخذت مكانك في أي معمل ، أومرصد . ؟

وهذا حق ، لكن ليس في الأمر خلاف ، فأنت أيضًا تستطيع أن تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله . إذا أخذت مكانك في معاملهم ومراصدهم . . . ! ! ! !

ومعاملهم ومراصدهم من نوع آخر ، نوع يستطيع كل إنسان أن يمتلكه إذا جَلا رُوحَه وأيقظ كل قوى نفسه الفاضلة واكتشف المناطق المخبوءة من عقله وبصيرته . .

إن الإيمان الديني ، كالإيمان العلمي – كل منهما نوعان :

إيمان رؤية . . وإيمان تصديق أومُحاكاة . .

فإيمان الرؤية في العلم ، هو إيمان العلماء الذين اكتشفوا بأنفسهم . .

وإيمان التصديق في العلم ، هو إيمان ملايين البشر الذين لم

يمارسوا التجربة بأنفسهم ، لكنهم صدقوها . .

كذلك إيمان الرؤية في الدين ، هو إيمان المرسلين ، والهداة الذين عاينوا وشاهدوا ، وذاقوا . .

وإيمان التصديق في الدين ، هو إيمان الكافَّة . .

فإذا رضِيتَ أن تؤمن بحقائق العلم ، إيمان مُصدِّق ، لا غير ، فلِمَ لا تؤمن بالله إيمان مُصَدِّق أيضا . . ؟ !

هل أنت مصمم على أن يكون إيمانك بالله إيمان رؤية ، ويقين ومباشرة . . ؟ ؟

حسن هذا . .

فاصنع إذنْ ما يجب صنعه حين تريد أن يكون إيمانك بحقائق العلم إيمانًا مباشرا . .

مارِس تجربة الإيمان بنفسك . . هَيِّئْ لها قلبك ووعيك ، وابذل جهودا مثابرة . . وسوف يتجلى لك الله ، كما تجلى لغيرك .

* * *

إن آلاف العصور والأحقاب التي عاشتها البشرية فوق هذه الأرض . . شهدت باستمرار حنينا دائبًا من الناس . وتطلُّعًا مستمرا ، ومُحاولات كادحة ، للاتصال بالله . .

إن في كل فرد منا ، وفي نوعنا الإنساني كله ، نُزوعًا يذكِّرنا دائمًا بأن لنا خالقًا وبارئًا ومنشئًا . . .

أَوَلَا يدل هذا النزوع على شيء . . ؟ ؟

أَوَلا يدل تصميم الناس مُذْ وُجِدُوا على أن هناك قوة عليا ، عليهم أن يبحثوا عنها ، ويشدُّوا رِحالَهم إليها . . ألا يدل هذا على شيء . . ؟ ؟

سيقال لك . لقد ظل الناس منذ وُجدوا مصممين على أن الأرض مركز الكون حتى جاء يوم تخلَّوْا فيه عن زعمهم هذا . .

أجل . . ولكنهم تخلوا عن زعمهم ، لأن يقينًا من صنع عقولهم كشف لهم الحق ، وعرفوا به حقيقة وضع الأرض .

فهل قدَّم العلم يقينًا مُماثِلاً . يَدْحَضُ إيمانهم بالله . . ؟ !

كلا . . بل إن العلم كلما أمعن في فتوحاته ازداد انبهارا . وازداد تواضعًا ، وازداد إيمانا بأن ما يجهله أكثر مما يعلمه ، وأن الأسرار الكبرى التي تتكشف له أكبر من أن تكون تلقائية النشأة ، عَفْوِيَّةَ المسير . . ! ! !

وبعضُ العلماء الذين تعجلوا الحكم ، لم يزيدوا على أن أخذوا كل الصفات المنسوبة لله ، ونسبوها للمادة . . ! !

فهم لا يؤمنون بالصدفة كمحرك للكون . .

وهم يرون في الدقة الفذة المعجزة التي يسير بها الكون ذكاء ، وحكمة ، ومَقدرة . .

هذا الفضاء المملوء بالمجموعات الشمسية ، كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبحون ! !

وهذه الأرض التي انفصلت من الشمس قطعة لهب تتوهج . . ثم إذا هي تدور حول نفسها مرة كل يوم ، وحول الشمس مرة كل عام . .

وإذا من هذه الدورات . يكون ليل ، ونهار . ويكون صيف وشتاء ، وربيع ، وخريف . .

ثم هي ، ينفصل منها جزء آخر . يدور حولها في تَماسُكٍ ومثابرة ، ليصير قمرًا لها . .

لماذا وكيف تم هذا التوافق الهندسي الرياضي . . ؟ ؟

وأية قوة وراءه . . ؟ ؟

إننا نبصر جهاز الراديو ، فندرك بدَاهةً أنه تصميم قوة عاقلة ، — الانسان . .

فهذا الهواء ، هذا الأثير . . هذه الموجات الكهربية التي تنقل

الصوت ، أليس لها هي الأخرى مُصَمِّم . . ؟؟؟

هذا الكون . . هذا الانسان المعجز وحده . . أليس له مُصَمِّم . . ؟ ! يقولون : المادة . . حَسن ، فهل تصنع المادة كل هذا خبط عشواء أم أن معها بصيرتها وقدرتها . . . ؟؟

لماذا إذن ، يَسهُلُ علينا الإيمان بمادة علمية قادرة ، ويصعب علينا الإيمان بإله عليم قادر . . ؟ ! !

لماذا نسيغ القول بأن المادة خلَقتْ نفسها ووضعت قوانينها التي تُذهِلنا حكمتها ودقتها . . .

ثم لا نسيغ الإيمان بوجود قوة أخرى موجودة بذاتها . . ؟ !

لماذا تهضم عقولنا هذا . وترفض ذاك . . ؟؟ !

الحق أن الفاصل بين الإيمان والإنكار ، فاصل وَهْمِيّ . .

والحق أن الذين يعطون المادة كل هذا السلطان ، لم يغيروا من الحقيقة إلا اسمها . . ! ! !

إنهم نقلوا صفات الله إلى « المادة » . . وهذا كل ما فعلوا . . . ! ! !

الْتَمِسْ أنت طريقك إلى الله ، وآمن بالله ، فإنه حق . .

لا تحسبن الإيمان « رجعية وتخلفًا » . .

فالرجعية ، هي الايمان بالخرافات التي تطفلت على الايمان الحق ، وعلى الدين الخالص عبر القرون . .

أما الإيمان في حقيقته . ففوز . . .

وأما الدين في روحه ، فهداية . . .

لا تَخَلْني قدِّيسا ، أوداعيًا كرَّس حياته لدعوة الإيمان والدين أبدا . أنا مجرد إنسان ، يحب الناس كثيرًا ويرجو لهم الخير جميعًا . . وحين يلمح طريقا يحسبها مُفضية إلى خير فإنه يشعر بغبطة دافقة إذ يدل على هذه السبيل كل من يلقاه . . ! !

وفي تجارب حياتي ، وحيوات الآخرين ، التقيتُ بما ملأ روعي يقينا بأن لنا إلها كبيرًا . .

وهذه التجارب . ليست هي التي تخلُق الايمان بالله – ولكنها توقظ حقيقته الفطرية الكامنة في كل منا ، والتي فطَر الله الناسَ عليها . .

من أجل هذا ، فأنا أدعوك إلى خيرٍ جزيل ، حين أقول لك ، وَلِّ وجهك شَطْر الله . . .

* * *

* إن الايمان بالله ، سِمَةٌ من سِماتِ الامتياز العقلي ، والاستقامة الفكرية . . والإيمان بالله ، سمة من سمات الاستنارة ،

وسَعة الأفق . .

ذلك أن الانسان المثقف المستنير ، لا يرحِّب بالأحكام التي تحجز على مستقبل الحقيقة . . وهو يؤمن بالغيب ، والغيب في التحليل النهائي له ، هو كل ما لم يتكشف لنا من « الكُلِّي » بعد . .

والله الذي تخفُق به مشاعرنا وضمائرنا منذ وجدنا على هذه الأرض لا أقل من أن يكون جزءاً من ذلك الغيب . .

فاذا أردت أن تُنَحِّيَ وُجوده بحركة من أصبعك.. مهملا بهذا حق الغيب في أن تحترمه حتى يتكشف لك . فانك بهذا تدل على حاجتك إلى الاستنارة والفهم ، واستقامة التفكير . . ! !

* والايمان بالله ، مَلاذ . . ولا أقول عَزاء . .

وأكثر الناس جبروتًا وقوة ، تمر به تلك الأوقات التي يفزع فيها فيها إلى الله ، فيجد الأمن والراحة من آفات نفسه ، ومخاوف حياته . .

فإذا جعلتَ « خَطَّ الطُّول » لحياتك ، هو الايمان المزدهر بالله ، فإنك مهما تستجب للخطأ ، وللضعف ، ستظل محتفظا برباطة جأشك ، وسلامة تقديرك ، لأنك موصول الأسباب بالقويِّ الأعلى ، ولأن يده الحانية التي تتبعك من غير أن تراها ،

ستُمسِك بناصيتك في الوقت المناسب ، وتدفع عنك ما يتربص بك من سوء وشر . . ! !

إن جميع الهداة الذين دعونا لكي نؤمن بالله ، وألحُّوا في دعائهم لم يكونوا يعملون لصالح الله . بل لمنفعة البشر . فالله سبحانه لا يزيد بإيمان الناس قوة ، ولا يلحقه من جحودهم وَهْن . . .

أرأيت ، لو اجتمع أهل الأرض جميعًا ، وأنكروا وجود الشمس – أيضرُّ الشمسَ إنكارُهم هذا . . ؟ ؟

كلاّ . . وستظل هي تبتسم لهم مُرسلة نعماءها وضياءها . . ! !

ولكنْ ، لو أن ناسًا من الناس ، قاطعوا الشمس ، وحرَموا أنفسهم حرمانًا كاملا من التعرض لضوئها ، وأشعتها ، ودفئها وقضوا اعمارهم كلها في سراديب غائرة . .

أليسوا بعملهم هذا . يُلْحِقون بأنفسهم – لا بالشمس – أفدحَ الكوارث . . ؟ !

كذلك الذين يَحرمون أنفسهم نعمة الإيمان بالله ، ويحرمونها بالتالي مُعطَيات هذا الإيمان ، ويغلقون النوافذ التي يهبّ الإيمان منها بُشْرًا ورحمة ، ويعزلون وجودهم عن مصدر القُوى والحياة . !

* – والإيمان بالله طاقة يأخذ منها المؤمن ما يشاء ، لما يشاء .

وهذه الطاقة لا تمنح القوة مجرد القوة . . بل هي تمنح القوة العادلة . . وهذا خير ما يدركه إنسان حي . .

أجل ، القوة العادلة ، هي ما يفيئه الإيمان بالله ، أوّلَ ما يُفيء . . .

لأن الطيش والبغي ، يجيئان ثمرة خراب داخلي ، تعانيه نفس الطائش الباغي . . أو ثمرة غرور يزجيه سوء تقدير لنفسه ولحقيقته . .

والإيمان ينفي هذا عن النفس الرشيدة المؤمنة ، كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد . . وذلك بما يملأ به الأفئدة أمنًا وثقة ، وبما يقتضيه من منهاج للسلوك وللحياة صادق وأمين .

فالإيمان بالله ، ليس مجرد تصديق نفسي . . بل هو قوة دافعة لحياتك كي تسير وَفْق القيم المثلى التي تحقق لجنسنا البشري سعادته وتفوقه . .

* والإيمان بالله ، لا يرفع من مستوى حياتك الشخصية وحدها بل هو يرفع من مستوى الحياة كلها . . .

لأن الإيمان — واذكر دائما أننا نعني إيمان الحقيقة ، لا إيمان الخرافة — . . .

أقول : ؛ لأن الإيمان يجعل من الحياة كلها عائلة واحدة

كبرى يرعاها ربها وبارئها . .

ويصنع من الحياة الانسانية بصفة خاصة ، قلبا واحداً يؤدي عمله في وحدة ، واتِّساق . .

فالإنسان والحياة ، غاية من غايات الإيمان ، بل من أكثر غاياته أهمية وجلالا . .

فالإنسان ، خليفة الله . . ! !

والحياة ؛ بُسْتان الله . . ! !

وواجب كل فرد أن يعمل مع الله في بستانه حتى يظل ناميًا مزدهرا – وأن يبذل من نفسه حتى يحقق نوعُه الإنساني كل ما يقتضيه مستوى الخلافة عن الله من تفوق واكتمال . .

* والإيمان بالله يوسِّع نطاق وجودنا بما يُوحِيه من ثقة . . ويوطد دعائم آمالنا في المستقبل بما يهبه من تفاؤل . . .

فالإيمان بالله سبحانه ، يعني التفاؤل والتهلل . ، لأن اليأس وليد العجز وتجرُّع المزيمة . .

أما المؤمن الذي يستمد من الله عونا دائما ، فهو أبعد شأوًا من أن يُكبِّل العجز ساقيه . . وهو حين تقع به هزيمة ، لا يحسّ مرارتها لأنه لا يتجرّعُهَا . .

ومن ثَمَّ فهو متفائل دائما ، ينفر من اليأس ، لأن الإيمان يرى اليأس كفرًا . . ولأن كلمة الله تناديه دوما : « إنه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون » . . . ! !

إننا لا ندرك جمال الحياة وسموها إلا في تلك الأوقات التي نحس فيها أننا نملؤ الزمان والمكان – وأننا مسيطرون تماما على أنفسنا ، وعلى حياتنا ، وعلى مصايرنا . . وأننا أحرار تماما في اختيار مباهجنا وفضائلنا وأخطائنا . .

ومِن عَجبٍ ، أنه لا شيْ يتيح لنا كل ذلك مثلما يتيحه الإيمان بالله حسب المفهوم الصحيح لهذا الإيمان . .

نحن نحسب الإيمان قيدا وغُلاًّ . .

وهو ليس كذلك أبدا . . .

إنما الإيمان إطار تتحرك داخله حياتنا دون أن نحس بضيق أو انكماش – لأنه إطار واسع ، لا حدود له ، لأن الله الذي هو موضوع هذا الإيمان ، لا حدود تحدّه ، ولا تُخومَ هناك تقف عندها رحمته ، وقدرته ، وهِباتُه . . . ! !

* * *

وكما قلتُ لك من قبل : اخترْ حياتك ، وانسج بيديك بُرْدَتَها . .

أقول لك هنا : اخترْ إيمانك ، واجمع بنفسك وثائقه . . .

الوَصِيَّة العاشِرَة

وطِدْ مَسْئُولِيَتَكَ بالحرِّيَة ..
وَحَصِّنْ حَيَاتَكَ بِالعَدْل ..
وَاتْرُكْ لِلْوُجُودِ شَذاكَ ..!!

بين الناس والحياة ميثاق ، لا مناصَ لهم من احترامه والوفاء به إذا أرادوا أن يحيوها . .

ميثاق استمَدَّ نصوصه من ضرورات الوجود . .

وأول سطور هذا الميثاق حقيقة تقول : « عيشوا أحرارا » . .

والانسان هنا ، فوق أرضنا هذه ، ووسط عالمه هذا ، ليس شيئًا عابرا . . ليس ضيفا عارضا ، ولا واحدا من أبناء السبيل . . !

إنما هو خليفة الله ، من غير مبالغة في شأنه ، ولا مجاملة له . .

هو خليفة القوة القادرة الحكيمة التي يحيا الكون كله في كنَفِها ، ويمضي في حركته وفق قوانينها . .

هو أستاذ حياته ، وصانعها ، والمسئول عنها . .

وهو مسئول عن الكوكب الذي سادَه ، وأمسك بزمامه . . مسئول عن الحياة التي حملت اسمه ، وصار اسمها « الحياة الانسانية » . . مسئول عن مصيره كنوع متميِّز ، اختار طريقه ، ولن يُسمح له بالتقهقر ، أو بالهروب . . ! ! !

ومسئولية النوع . . المسئولية الانسانية كلها ، تتكون من

مسئوليات الأفراد الذين ينتظمهم الجنس البشري . .

ومن ثم ، كان لكل فرد مسئولية مزدوجة . . مسئولية تجاه مصيره ، ومسئوليته تجاه المصير الانساني جميعه .

وكل فرد يحمل مسئوليته تجاه نفسه ، يحملها في نفس الوقت تجاه البشر كلهم . .

والأسلوب الذي يختاره لحياته ، يُؤَثِّر تلقائيا ، وبِنِسَبٍ متفاوتة ، في حياة النوع بأسره . .

وامتزاج مسئولية الفرد عن نفسه بمسئوليته عن نوعه ، يرفع من مستوى هذه المسئولية ، ويُضاعِف من تبعاتها وخطرها . . الأمر الذي يتطلب توفير الفرص اللازمة للقيام بهذه التبعات . .

« أنت مسئول » . . ! !

عبارة تبدو خفيفة ، سريعة ، عابرة . . ومع هذا فليس في الحياة الإنسانية كلها ما هو أثقل ميزانًا ، وأخطر شأنا من مدلول هذه العبارة . . ! !

* * *

ولكي تباشر مسئوليتك عليك أن تتحرك ، وتعمل . . وقبل الحركة والعمل عليك أن تفكر ، وتقرر ، وتختار . .

وأنت لا تعمل وحدك . ولا تفكر وحدك . .

إنما يتصل تفكيرك بتفكير الآخرين ، وتستمِدُّ جهودُك العونَ من جهودهم . .

من أجل هذا ، كان توفير الفرص لإنجاز مسئوليتك ، يعني في نفس الوقت ، ولنفس السبب ، توفيرها للآخرين جميعًا . .

ولكي يجيْ تفكيرك سديدًا . واختيارك رشيدًا ، ينبغي أن يكون السَّداد طابع التفكير في بيئتك كلها.فإن لم يكن ، فلا أقل من أن تكون فُرَصُه مهيأة لمن يقدر على اهْتِبالها والانتفاع بها . .

وفي مجال المسئولية بالذات ، لا شيْ يَهبُ السداد مثل الحرية .

يفكر الناس أحرارا . . ويختارون لأنفسهم أحرارًا . . ويؤدون واجباتهم أحرارًا . .

* * *

إذا كنت مسئولا عن إطفاء حريق ، فيجب أن تتمكن من استعمال المِضخَّات .

وإذا كنت مسئولا عن إنشاء حديقة ، فيجب أن تكون حرًا في اختيار بذورها ، وغرسها .

وأنت مسئول عن الحياة في نموذجها الفردي الذي هو أنت .

وفي مجالها العميم المتمثل في كل مظاهرها

من أجل هذا ، يكون حقك في اختيار قراراتك حقا ضخما ، ضخامَة مسئوليتك نفسها . وحقا خالداً ، خلود الحياة ذاتها . . !

فوطِّد مسئوليتك بالحرية . .

« الحرية » . .

انظر جَرْسَ الكلمة وشفافِيَتَها . . ! !

إن لها رقة النسيم ولطفه . . ! !

وكأنَّ ذلك كذلك ، ليدل على فرط بداهتها ، وقداستها. !

أجل . . إنها من الضرورة ، ومن الحتمية ، ومن البداهة ، بحيث لا تحتاج إلى الكلمات الضخمة كي تعبِّر عنها . . لا تحتاج إلى أيٍّ من وسائل التوضيح والإثبات . . حتى الكلمة التي تدل عليها ، بسيطة بساطة الحقيقة . . بدهية بداهة المطلق . . رقيقة ، عذبة ، وديعة . . ! ! !

وإنها لكذلك فعلا . . ومن عائد القول أن يحاول أحد توكيد حق الأحياء في الحرية . .

فما دمتَ حيا ، فأنت حر . . .

وما دمتَ مسئولا ؛ فالحرِّية أقدسُ حقوقك . .

ذلك أن المسئولية تجد نفسها ، وتحقق كيانها حين تعيش وتعمل في مُناخها الطبيعي، ومجالها الحيوي ، الذي هو« الحرية »..

ولقد أتى على الناس حينٌ من الدهر، كانوا يمارسون مسئولياتهم في ظل الخضوع . . وأيامئذ ، كان التأخر يأخذ بزمام القافلة الإنسانية إلى الوراء . .

ولم تكن القافلة تُفلت من قبضة التدهور والانحطاط ، إلا حين يظهر فيها فرد أو أفراد يباشرون مسئولياتهم في ظل الحرية ، ويَدْعُون الناس إلى هذا النهج القويم .

عندئذ ، كانت المسئولية الحرة تقود القافلة إلى مشَارِف الحقيقة ، وكانت شمس المعرفة تغمُرها بالدفء والضياء . . .

إذا باشرتَ مسئولياتك في ظل الخضوع والعجز فإن العُقْم يغتال حياتك ومواهبك . ويجعل منك نفاية آدمية . .

أما إذا باشَرتْها في ظل الحرية وحِمَاها ، فإنك ستكون لا ريب علامة من علامات الرشْد الإنساني في قومك وبيئتك . .

ونَبْذُ الخضوع ، لا يعني نبذَ القانون . .

كما أن العمل مع الحرية ، لا يعني التشيع للفوضى . .

ذلك أن القانون العادل ، تنظيم لحركة الحرية وسلوكها .

ومواد القانون . أشبه ما تكون بعلامات المرور . .

إن جهاز المرور لا يجرِّد الراكب من عربته . ولا الماشي من قدميه . . وهو لا يتحكم في المشاة ، ولا الركبان ، مُحاوِلاً وقف حركتهم . لكنه ينظم العبور والتلاقي حتى يمضي كل في سبيله آمنا مُعافَى . . .

كذلك القانون العادل مع الحرية . .

إنه ينظم استعمال كل لحريته دون أن يسلب منها شيئًا . .

فاحترامك هذا القانون . لن يكون إذن خضوعا . إنما يكون استمرارًا لمباشرتك حريتك .

أما الخضوع ، فهو الاستسلام الذليل لكل تحكُّم غير مشروع .

وكل مسئولية تعبر عن ذاتها في ظل هذا الخضوع . تتلوث بآفاته ويصيبها من نزواته ، فتضطرب الأمور بين يديها ولا تثمر سوى أعمال هزيلة ، وحُطام يطفو فوق العباب . . ! !

فلا تغرِسْ أعمالك ؛ ولا تبذُرْ مسئولياتك في تربة الخضوع أبدا . . وتعامَل دوما مع الإقناع ، لا الإذعان . . ومع القانون . لا التحكم . .

وإنك على هذا لقادر كائنًا ما كنت ؛ وكائنًا ما يكون عملك . . أَطِع القوانين التي وُضِعت لصالحك . . !

وامزج الطاعة بالقانون ، مع الولاء للحرية مزجا يجعل منهما شيئًا واحدًا يتحول إلى قوة تدفعك وتهدي خطاك . .

وأَسْهِمْ بلا تردد في أن تظل قوانين بلادك صالحة وعادلة . . .

* * *

قلتُ لك أيضًا ، إن العمل مع الحرية لا يعني مُسَايرةَ الفوضى . فطبائع الأشياء تعلمنا أنه لا سبيل – أيّ سبيل – لأن تنعم بحريتك إلا إذا تركتَ الآخرين ينعمون بحرياتهم . .

فلكي تحتفظ بحريتك عليك أن تمكن الغير من الاحتفاظ بحريته .

لعلك تعرف قصة الرجل الذي كان يجلس إلى جوار آخر في حديقة فتثاءَبَ وبسَط ذراعيه حتى صكّتْ أصابعُ يده أنفَ جليسه . . فلما استهجَن الجليس حركته هذه . قال له : أنا حر . .

هنالك أجابه الآخر . أجل . أنت حر . ولكن حرية يدك ، تنتهي حيث تبدأ حرية أنْفي . . ! ! !

إن هذه الطرفة أصدق تصوير لسلوك الحرية . .

فحريتك يجب أن تسلُك طريقها فوق الأرض لا فوق رءوس الناس . . ! !

وحريتك ، يجب أن تعمل في وفاق تام مع حريات الآخرين،

* * *

واذكر دائمًا أنِ الحرية مِعراج الحياة . وليست « الشماعة » التي تُعلَّق عليها الأخطاء . .

إذا تورطت في خطأ ، أو نقيصة ، فلا تقل : أنا حر . ، فليست الحرية صندوق قمامة ، . بل كن شجاعا ، وقل أنا مخطئ . وكن أكثر شجاعة ، وحاول تصحيح خطئك . .

إن شر ما يُلحِقه إنسان بنفسه ، وبالناس ؛ وبالحرية مِن أذى ، هو التبجّح بالخطأ واصطناع الحرية « مِشجبًا » للرذائل والأخطاء ، وقفازا تخفي به الأيدي الآثمة جرائمها . . ! ! !

حرك مسئولياتك داخل النطاق الفسيح لحريتك العاقلة العادلة . ولسوف تتحول هذه المسئوليات إلى خَلْق . وإبداع . .

وسترى نفسك سيدا ، حتى حين يكون مكانك في المجتمع ، آخر مكان في آخر صَفّ . . ! !

إن الانسان الذي يباشر مسئوليته في ظل الحرية ، والثقة ،

يجعل من كل كرسي يجلس فوقه عرشًا . . ومن كل عمل تتناوله يداه معجزة . . ! ! !

* * *

والحرية والعدل توأمان . .

ولن تلتقي قط بظالم ، إلا ويحمل تحت ضلوعه روح العبيد ، وصغَارَ الأذلاّء . . . ! !

ولن تجد أحدًا يؤمن بالحرية ويقدسها ، ثم يرتكب ظلما ، أو يقترف بغيا . .

تَرابُطٌ عجيب ، قلَّما يجمع بين اثنين ، مثلما يجمع بين هذين التوأمين الحرية ، والعدل . .

كن حرًا ، تكن عادلا . .

وكن عادلا – تعش حرًا . .

اكفر بالحرية ، تستبح كل حق . .

واكفر بالعدل ، تضطهد كل حرية . . ! ! !

والظلم كئيب ، صغير ، مدمِّر . .

هناك حديث قدسي يتحدث الله به عن نفسه فيقول :

« يا عبادي . . إني حرَّمتُ الظلم على نفسي ، وجعلتُه بينكم

مُحرَّما فلا تظالَموا » . . .

أرأيت . . ؟ ؟

لم يقل الله إني حرمت على نفسي ، إلا هذه المرة . .

والله بطبيعة الحال ، مُنزَّه عن كل نقيصة ، فلماذا يؤكد نفي الظلم عنه ، وبهذا الأسلوب الصارم . . ؟ ؟

إن ذلك كذلك ، ليعلّمنا ، « أن أبا القوانين » التي تحكم الكون كله – هو العدل . .

وإذا كان الله الفعَّال لما يشاء ، قد حرَّم الظلم على نفسه ، فماذا يكون الظلم بالنسبة إلينا . ؟ !

من أجل هذا ، أقول لك :

« حَصِّنْ حياتك بالعدل » . . .

إن ميزان العدل دقيق . . ولا بد لك من يقظة الروح والعقل لتدرك الفوارق الخافتة بين ما هو عدل ، وما هو ظلم . .

إذا اختلست من الأموال العامة للأمة ، فأنت ظالم . .

وإذا اسرفت في مالك الخاص بك ، فأنت ظالم أيضًا . .

إذا اعتديت على غيرك ، فأنت ظالم . .

وإذا ابتهجت لعدوانٍ وقع من غيرك ، فأنت ظالم أيضًا . .

إذا اغتصبتَ حقوق الآخرين ، فأنت ظالم . .

وإذا فرطت في حقوقك ، فأنت ظالم أيضًا . .

إذا أسأت الظن بغيرك ؛ فأنت ظالم . .

وإذا عرَّضتَ نفسك لإساءة الظن بك ، فأنت ظالم أيضًا . .

إن العدل بعيد الأعماق ، واسع الآفاق . . ونَقِيضُه الظلم كذلك . . . ! !

* * *

والعدل ، هو التزام الحق . .

والظلم ، إهدار الحق ، أو التحايُل عليه . .

ولكي تحيا حياة عادلة ، امضِ في حياتك وفق الحق وحده . .

لا تتخطَّ رقاب الناس في الحياة . . وخذ دورك المشروع دون أن تُنحِّيَ أحدا عن حقه ومكانه . .

حين تسعى لمنصب لستَ به جديرا فسعيك هذا ظلم . .

حين تنتحل جهود غيرك ، وتعزو لنفسك مالم تفعل ، فانتحالُكَ هذا ظلم . .

حين تختص نفسك بامتيازات لا حقَّ لك فيها ، فعملك هذا ظلم . .

حين تلتمس بالوساطة ، أو بالرشوة ما ليس لك بحق ، فعملك هذا ظلم . .

وأنت ظالم إذا احتقرت آلام الناس ، ولم تبصر منهم سوى عيوبهم . .

ظالم ، إذا قدمتَ للناس شر ما عندك ، وطالبتهم بخير ما عندهم . .

ظالم ، إذا لم تقنع بالرغيف الذي معك ، وذهبت تقتنص اللقمة التي مع غيرك . .

ظالم ، إذا حصلت على ثروة ، لا يتكافأ معها جهدك المبذول.

ظالم . إذا حسدت غيرك على فضل يُعجِزك نَوالُه . . ! ! !

* * *

ليست الحياة الإنسانية مائدة قمار . . ولكنها مُباراة نظيفة تدور في أعلى مستويات النزاهة ، والتكافؤ ، والصدق . .

وأنجَزُ قوانين الحياة ، هو القصاص . .

والقصاص يرفض التسامح مع الظلم . . كأنه يعلم أن الظلم دمار الحياة وخرابها ، ومن ثم ، فلا بد من كبحه ، وهو في عالم النُّطَف . . ! ! !

وإن أصدق تبيانٍ لعدالة القصاص وصرامته ليتمثل في قول الرسول عليه السلام :

« اعمل ما شئت . . كما تَدِينُ تُدان » . . ! ! !

أجل ، كما تدين تدان . . وبالكيل الذي تكيل به ، يُكالُ لك . .

فَحصِّن حياتك بالعدل . .

وأمِّن مصيرك بالعدل . .

ولا تترك وراءك آثارَ قاطِع طريق . .

بل اترك للحياة عطرك ، وطُهرك ، وشَذاك . . ! !

إن حياتنا الانسانية تعتمد في استمرارها ونمائها – على رصيد الخير الذي يُخلِّفه لها أبناؤها الأبرار.

كل كلمة طيبة . . كل سلوك عادل . . كل خطوة سديدة – إنما تُشكِّل الرصيد الذي تنفق منه الحياة على نفسها ، وعلى أبنائها . . .

ذلك أن الحياة تنمو بالقدرة . . .

وكل فرد يستطيع أن يكون قدوةً بالخير الذي معه . . .

وعلى الرغم مما يكون لك من خطأ ، فأنت قادر على أن تعطي

القدوة بما معك من صواب وفضائل – شريطة أن تكون هذه الفضائل ثابتة ، عادلة ، صادقة . . . ! !

فاترك للحياة شذَى إنسان ، حَمَل تبعات رشده في أمانة . .

وقضى أيامه معها في نبل ، واستقامة ، وإخلاص . .

* * *

وبعد . . .

وقبل أن أطوي هذه الصفحات ، منتهيا من كتابتها . . .

وقبل أن تطويها أنت ، منتهيًا من قراءتها . . .

دعني أذكرك بأن شَحْذَ قُوَى الحياة يتطلب أن يتواصَى الأحياء بالخير وبالحق دوما ، وأن يُذكِّر بعضهم بعضًا بمواثيق النهوض . . .

وأظننا عبر هذه الصفحات ، قد تواصَيْنا وتذكَّرْنا . .

ولسوف يحمل كل منا من أمانة هذا الحديث وتبعاتِه ما يُطيق.

وسيكون أكثرنا انتفاعا به ، أكثرنا استجابة له . .

وصحيح أن العمل وَفْقَ الحق والخير ، أمر صعب .

ولكن اذكر جيداً ، أنك إذا لم تُواجِه الصعاب من أجل بلوغ حياة عظيمة مستقيمة . . ؟

فستواجه نفس الصعاب أو أشدّ – حين تعاني حياة هابطة سقيمة . . ! !

وَلأَنْ تُعانيِ مَتاعب الصعود إلى القمة . . خير وأهدى من أن تعاني متاعب الانحدار إلى السفح . . ! ! !

فاستعِنْ بالله ، ولا تَعْجَز . .

وفي غبطةٍ ، تحمّل تبعة الوجود . .

وفي شجاعةٍ ، تقبَّل أمانة الحياة . .



في هذا الكتاب

رقم الإيداع
٨٥/٥٨٣٤

المطبعة الفنية ت ٩١١٨٦٢

أنـت ... وأنـا ... قد تواتينا القدرة على الأخذ بهذه الوصايا جميعا . وقد نقدر على بعضها ، ونعجز عن بعض ...

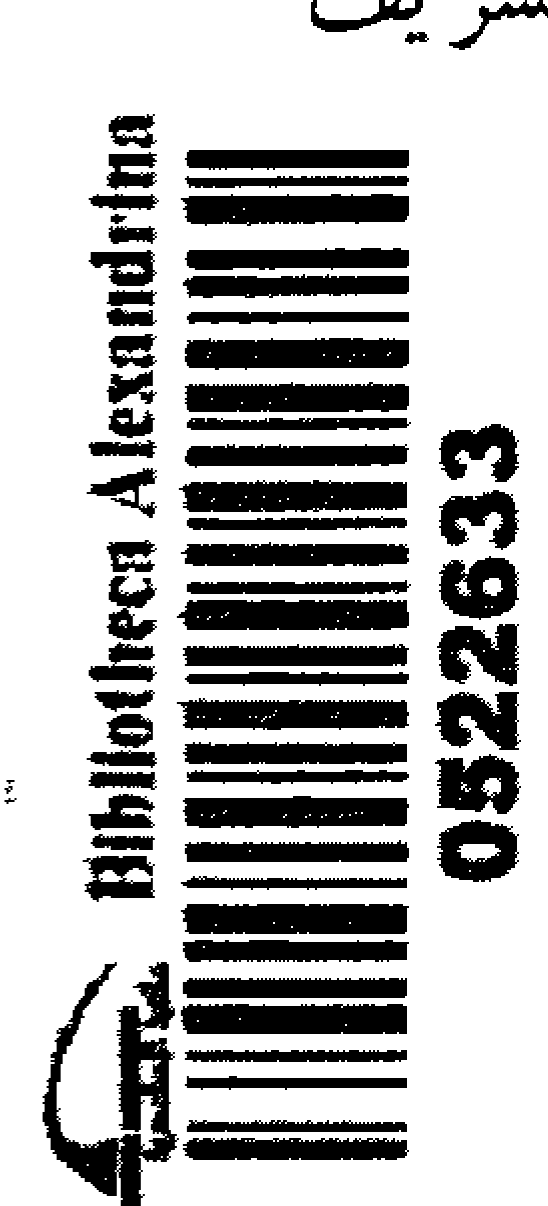
ومـهما يكـن الأمـر، فلا ينبغي أن نيأس ، أو نتخذ من العجز مَرفأ يرسو عليه زورق حياتنا ...

بـل عـلـيـنـا أن نحـاول دوما ؛ ونحـقـق منها ومـن الخير ما نستطيع ...

وسـنـجـد كـمـالَـنـا في أولئك الذين يستطيعون أن يحققوها جميعـا ، و يُضـيـفـوا إليها جـديدا ... كما سنجده في هذا القدر المشترك من محاولا تنا معا ، ومثابرتنا دائما ...

والآن . نمـضـي سو ياً ، نحن الذين نلتقي حول هذه الكلمات والوصايا ...

ولْيـحـاول كـل مـنا أن يَسبق ... فهذا هو السباق الشريف حقاً ... النبيل حقاً ... العادل حقاً ... !!



الناشر: دار ثابت للنشر والتوزيـع ٩٢ (أ) شارع محمد فريد القاهـرة.

طبع بالمطبعة الفنية ت : ٩١١٤٨٦٢